الهيئة العامة السورية للكتاب

رُؤْيَةُ المَغلُوبِيْن

شهاداتُ السُكّان الأصليين

حولَ الغزوِ الإسبانيّ لبلادِ المكسيك

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوِّح
وزيرة الثقافة

المشرف العام
د. نايف الياسين
المدير العام للهيئة العامّة السوريّة للكتاب

رئيس التحرير
حسام الدين خضور

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

تصميم الغلاف
عبدالله القصير

الهيئة العامة السورية للكتاب

رُؤْيَةُ المَغلُوبِيْن

شهاداتُ السُكّان الأصليين

حولَ الغزوِ الإسبانيّ لبلادِ المكسيك

تأليف: ميغيل ليون بورتيّا

ترجمة: رياض شرف الدين

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:

Visión de los Vencidos

الكاتب: Miguel León Portilla

الناشر : Universidad Nacional AutÓnoma de México, 1959

المترجم : رياض شرف الدين

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

رؤية المغلوبين: شهادات السكان الأصليين حول الغزو الإسباني لبلاد المكسيك / تأليف: ميغيل لِيون بورتيا؛ ترجمة: رياض شرف الدين - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م.- ٢١٦ ص؛ ٢٥سم.

(المشروع الوطني للترجمة. العلوم الإنسانية).

١- ٩٧٢ ب و ر ر ٢- العنوان ٣- بورتيا ٤- شرف الدين

مكتبة الأسد

تعريفٌ بالكتاب

أُعيد طبع هذا الكتابِ مراتٍ كثيرة، وبلغَ انتشاراً كبيراً في مُجمل المشهد المطبعيّ الجامعيّ – هنالك بضع مئات آلافٍ من النسخ- ما سمحَ للكثيرين بتقييمِ دراما الفتح ليس من وجهةِ نظرٍ إسبانيةٍ فحسب، وإنّما من منظور السكان الأصليين أيضاً.

أسّس كتاب "رؤية المغلوبين" لشكلٍ جديد من كتابة التاريخ، هدفه المركزي إظهارُ "رؤية الآخر وصورته". ولذا ليس بمستغربٍ أن أصبح هذا الكتاب – الذي ألفه وبناه ميغيل ليون بورتيّا- ملهماً لآخرين، فنسجوا على منواله.

تُرجم هذا العمل الذي يتحدث من خلاله أولئك الذين تأملوا المواجهة مع رجال قشتالة، إلى لغاتٍ كثيرةٍ أخرى (غير الإسبانية) مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والبولونية والسويدية والهنغارية والصربية- الكرواتية والعبرية واليابانية والكاتالانية والبرتغالية. وإضافةً إلى الطبعات الكثيرة التي قامت بها الجامعة الوطنية ظهرت طبعاتٌ أخرى أيضاً بالقشتالية (الإسبانية) في كوبا وإسبانيا.

كما أُعيدت طباعة "رؤية المغلوبين" للمرة الثانية عشرة في الذكرى الثلاثين لطبعته الأولى التي رأت النور في عام ١٩٥٩.

روبرتو مورينو دي لوس أركوس

منسّق العلوم الإنسانيّة في جامعة مِكسيكو

الهيئة العامة
السورية للكتاب

مُقَدِّمَة

انبهارٌ ودهشةٌ هو ما شعرَ به أوربيو القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما اطّلعوا على حوليات مستكشفي وفاتحي العالم الجديد وأخبارهم ورواياتهم. إن أوربا تلك القارة العجوز، ذات التاريخ الطويل أبدت نهماً لمعرفة أساليب العيش الغريبة لتلك "الشعوب الهمجية" التي راح "يستكشفها" البحارون والكشافة والفاتحون.

استقبلت إسبانيا باهتمامٍ بالغٍ المعلومات التي أوردها بعفوية أو بِنيَّةٍ مزدوجةٍ مؤرخو ما يسمى بـ "جزر الهند الغربية" الواقعة في البحر الكاريبي. ربما كانت مثار جدلٍ في بعض الحالات، لكنها غدت باستمرارٍ موضع تأمل.

ليس الفاتحون والآباء المبشرون وحدهم، وإنما أيضاً الحكماء وعلماء الإنسانيات الأوربيون والمؤرخون الحقيقيون، حاولوا أن يكوّنوا لأنفسهم تصوراتٍ مناسبةً عن الحقائق المادية والإنسانية المتنوِّعة الموجودة في العالم الجديد. جاءت النتائجُ متباينةً، فقد تم إسقاط أفكارٍ قديمةٍ على الموضوع. ظنّوا مثلاً أنّ بعض السكان الأصليين هم في الحقيقة سليلو القبائل اليهودية من زمن التيه. هذا هو رأي الأب دييغو دي دوران.

في أحايين أخرى كانت الروايات و الحكايات عبارةً عن دفاعٍ شبه واعٍ عن الفتح، كما هو الحال في إرنان كورتيس. بعض المقالات تقدم السكان الأصليين للعالم الجديد كبشرٍ متوحشين، وثنيين، جل همهم أكل لحوم البشر وممارسة الشذوذ الجنسي، بينما في مقالاتٍ أخرى يتم وصفهم كأنموذجٍ للفضائل الفطريّة.

مسار الفاتحين

بناءً على الأخبار التي كانت تصل، فقد كُتبت في أوروبا لاحقاً قصصٌ من منظور النزعة الإنسانية التي راجت في تلك الحقبة. يكفي استذكار "عشريات العالم الجديد" للشهير بيدرو مارتير دي أنغليريا، التي من خلالها يعبر مطولاً عن مدى إعجابه عندما يصف فنون الهنود وطرائق عيشهم، أو ذلك الكم الباهر من المعلومات البكر التي ضمّنها المدون الملكي أنتونيو إريرا في كتابه "التاريخ العام". خلاصةً، يمكن القول: إنَّ التأريخ ليس فقط الإسباني والبرتغالي فحسب، وإنما الفرنسي والإنكليزي والألماني والإيطالي أيضاً، قد اكتسى حياةً جديدةً حين وجّه دراسته للأشياء الطبيعية والإنسانية الخاصة بالعالم الجديد.

لكن أمام اهتمام العالم القديم بأشياء هذه القارة وبشرها، فإنه نادراً ما يتم التفكير في الإعجاب والاهتمام المتبادل الذي أوقظه في نفوس الهنود وصول هؤلاء الآتين من عالمٍ مجهولٍ أيضاً. لأنه إذا كان ثمة ما يجذب في دراسة كيفية فهم الأوربيين لمن دعوهم خطأً بـ "الهنود"(١) فإنّ المشكلة المقابلة التي تدفع إلى التعمق بفكر السكان الأصليين يحمل في طياته الاهتمام نفسه أو أكثر.

ماذا فكّر رجال العالم الجديد، على الخصوص، أهلُ أمريكا الوسطى، مثل الناهوا والمايا وآخرين حين رأوا وصول المستكشفين و"الفاتحين" إلى شواطئهم وحواضرهم. بأيّ معنىً فهموا نضالهم؟ كيف قيّموا هزيمتهم؟ صحيحٌ أن هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها في كل الحالات، لكن على الأقل ستكون هناك بعض الإجابات، فيما يتعلق بالثقافات الأصلية التي بلغت درجةً أكبر من التطور.

إنّ نصوصهم ورسوماتهم من جانب، والروايات الإسبانية من جانبٍ آخر، تشكلُ كلها الوجهين المختلفين للمرآة التاريخية التي ينعكس فيها الفتح. كما هو طبيعي تُظهر التصورات التي تَوصَّل إليها سكان أمريكا الوسطى والإسبان تنوعاتٍ كبيرة. لكن رغم ذلك فإن الإدانات و سوء الفهم المتبادل في تصورات الصنفين هي جدُّ إنسانية. ولَمَّا كانت كذلك وَجَبَ دراستها دون أفكارٍ مسبقة. و ذلك لأن الفحص المتأني بعيداً عن

(١) أُطلق لفظ "هنود" على سكان تلك البلاد التي سميت لاحقاً بـ "القارة الأمريكية" ظناً من المستكشف كريستوبال كولون (كريستوفر كولومبس) بأنه قد وصل الى جزرٍ قريبةٍ من شبه القارة الهندية.

الأحكام المسبقة يساعد على فهم جذور المكسيك الحالي الذي هو نتاج حيّ لذلك اللقاء العنيف بين هذين العالمين.

في أمريكا الوسطى فإن ثقافات المايا والناهوا هي التي تقدم الشهادة الهندية الأكبر عن الفتح. كلتاهما ثقافتان ذواتا تاريخٍ و كتابة و نقلٍ شفاهيّ. إن تنويهاً مقتضباً عن الاهتمام الذي كانت تبديه بالتاريخ تلك الشعوب الأصلية، سيجعل واضحاً سبب اجتهادها في حفظ رؤيتها الخاصة عن الفتح.

الاهتمام بالتاريخ في عالم الهنود الحمر

إن مسلّات المايا ونُصُباً تذكارية أخرى لشعوب المايا والناهوا، وأيضاً النصوص التاريخية و"كتب السنين" في عالم الناهوا ما قبل الإسباني، التي هي عبارةٌ عن كتابةٍ تصويريةٍ بشكل رئيس وكتابة صوتية بدائية، تشهد على الجهد الكبير الذي كان يبذله الناهوا والمايا لحفظ ذكرى الأحداث الماضية ذات الأهمية. يُتَمِّمُ ما سبق النصوصُ التي كان يتم تلقينها غيباً في مراكز التعليم ما قبل الإسبانية، إذ يتم تعليم الطلاب، من بين أشياء أخرى، القصص القديمة حول ما حدث، عاماً بعام، كما كان مسجلاً في مدوناتهم.

سنضيف شهادةً وحيدةً على حرص السكان الأصليين على حفظ تاريخهم، دون ابتغاء مديحٍ من الهنود، فمنذ القرن السادس عشر تم حفظ رواياتٍ وأخبار حول أفعال القشتاليين في الجزر والأرض اليابسة للبحر المحيط، ونحن نتكلم هنا عن المؤرخ الأكبر لفيليب الثاني السيد أنتونيو دي إريرا. وهذا يبرر إيراد المثال الطويل الآتي لأهميته. هكذا يكتب إريرا في "الكتاب العاشر"، الجزء ٤:

"كانت أمم إسبانيا الجديدة تحفظ ذكرياتها القديمة، وهكذا كانت هناك في يوكاتان وفي هندوراس "كتب أوراق" مضمومة يورد فيها السكان الأصليون توزيع الأزمنة، ومعارفهم عن النباتات والحيوانات وأشياء أخرى في الطبيعة. في مقاطعة المكسيك كان لديهم مكتبتهم وقصصهم وتقاويمهم، التي يرسمون فيها، ويسجلون أشكالاً وصوراً (الأشياء المجسمة) ورموزاً أخرى لما ليس له صورةٌ خاصةٌ به (الأشياء المجردة)، وهكذا يدونون كل ما يريدون.

ولتأريخ الزمن الذي وقع فيه كل واحدٍ من الأحداث كانت لديهم تلك "الدواليب" التي يمثل كل واحدٍ منها قرناً مؤلفاً من اثنين و خمسين عاماً، وبجانب هذه الدواليب وفق العام الذي حصلت فيه أشياء مهمة، فقد كانوا يضعون رسوماً، ورموزاً منطوقة، فمثلا يرسمون رَجُلاً وعليه قبعة وتنورة ملونة في برج القصب الموافق لذلك الزمن، ويشيرون به إلى العام الذي دخل فيه القشتاليون أرضهم، وهكذا فيما يتعلق بالأحداث الأخرى.

وبما أن كتابتهم التصويرية ليست كافيةً ككتابتنا، فقد كانوا غير قادرين على التنسيق بين الكلمات بدقة، وإنما فقط ما هو أساسي من المفاهيم: لكنهم اعتادوا التعلم في جوقات، ومن الخطب والاجتماعات والأناشيد. كان لديهم اهتمامٌ كبيرٌ بأن يحفظ الأولاد الأحداث التاريخية عن ظهر قلب، ولهذا الغرض أنشؤوا مدارس، يعلم فيها كبار السن الفتيان، وكتقليدٍ لديهم فقد حُفظت دوماً كاملةً غير منقوصةٍ.

وبعد أن دخل القشتاليون إلى تلك الأرض، إذ علّموا الهنود فن الكتابة، حينها راح هؤلاء يكتبون صلواتهم وأناشيدهم، كما كانت متداولةً

فيما بينهم منذ قديم الزمن: برموزهم وصورهم نفسها يكتبون هذه الآراء، وبالطريقة نفسها يكتبون الصلوات "يا ربنا" و "تحية إلى مريم" ومجمل العقيدة المسيحية."

إن أقوام الناهوا والمايا الذين كانوا يعتنون كثيراً "لدرجةٍ مثيرةٍ للفضول" بحفظ ذاكرة أحداثهم الماضية، لم يتركوا للنسيان رؤيتهم الخاصة للحدث الأكثر إدهاشاً ومأساويةً: الفتح الذي قام به رجالٌ غرباء دمروا إلى الأبد أساليب حياتهم العريقة.

الكتاب الحالي – وهو أنطولوجيا نصوص ورسومات- يقدم بعض الملامح لكثيرٍ من الصور التي شكلها -عن كورتيس والإسبان- سكان أمريكا الوسطى من الناطقين بلغة الناهوا في تينوشتيتلان، تلاتيلولكو، تيتزكوكو، شالكو وتلاكسكالا، وأيضاً الصورة التي كونوها عن الفتح والخراب النهائي لعاصمتهم مكسيكو- تينوشتيتلان.

كما يمكن تحضير عملٍ مشابهٍ من جانب دارسي حضارة المايا، الذين بحوزتهم رواياتٍ هندية عن الفتح، من بينها تلك المحتواة في "حوليات شاهيل" و"عناوين من تلك الواردة في بيت اشكين- نيهايب" وفي "حولية شاك-شولوب شين"، أو على الأقل بشكلٍ جزئي في بعض كتب "شيلام بالام".

ينبغي التطرقُ الآن بالاختصار الذي تقتضيه هذه المقدمة، إلى الطريقة التي كُتبت ورُسمت بها الشهادات المختلفة التي تركها رجالٌ من ثقافة الناهوا، الذين شهد كثيرٌ منهم الفتح، والتي تشكل ما أسميناه ب "رؤية المغلوبين".

روايات شعب الناهوا و رسومه حول الفتح

الراهب توريبيو دي بيناوينتي، الملقب بـ "موتولينيا"، الذي حينما وصل إلى مكسيكو- تينوشتيتلان في حزيران من عام ١٥٢٤، ضمن المجموعة الشهيرة المؤلفة من اثني عشر فرنسيسكانياً إلى إسبانيا الجديدة، هو أول من اكتشف اهتمام الهنود بحفظ ذكرياتهم الخاصة عن الفتح. فيما يأتي أنقل كلمات موتولينيا بنصها كما ترد في بداية الجزء الثالث من كتابه "تاريخ هنود إسبانيا الجديدة":

"ركز كثيراً هؤلاء الهنود الأصليون في حساب أعوامهم، على ذلك العام الذي دخل فيه الإسبان إلى هذه الأرض، كشيءٍ مثيرٍ للاهتمام جداً حيث أدخل في نفوسهم خوفاً كبيراً ودهشةً: أي رؤية أناسٍ قادمين عبر الماء (والذي لم يروا مثيلاً له من قبل ولا سمعوا أنه ممكن الحدوث)، وهم رجالٌ

ذوو لباسٍ غريبٍ عن لباسهم، جبارون و حيويون، وفي وقتٍ وجيزٍ دخلوا في مقاطعات هذه الأرض بكل تسلطٍ وجرأة، كما لو أن جميع السكان الأصليين هم أتباعٌ لهم. وهكذا كان هؤلاء يدهشون ويهربون لدى رؤية الخيول وما يفعله الإسبان على ظهورها... أطلقوا على الإسبان تسمية "تيتيوه" الذي يعني آلهة، ثم حرّف الإسبان من جانبهم اللفظ إلى تيوليس... هكذا لاحظ الهنود وأشاروا بشكلٍ خاص إلى العام الذي أتى فيه اثنا عشر راهباً معاً...".

في هذا الوقت لا يزال محفوظاً كثيرٌ من روايات الناهوا هذه التي فيها كما يلحظ موتولينيا سُجل قدوم الإسبان والأحداث الرئيسة للفتح. هذه الروايات والرسومات إلى جانب قصصٍ عديدةٍ أخرى كتبَها لاحقاً أيضاً سكانٍ أصليُّون، هي بالمجمل أكثر من اثنتي عشرة وثيقة. أيضاً لها ذات الأهمية والقدم والاستغاضة وهي كافيةٌ لدراسة العلامات المميزة للتصور الذي شكله المدونون بلغة الناهوا حول الفتح. بشكلٍ مختصرٍ سوف نصف أهم هذه الروايات، آخذين بعين الاعتبار قدمها إضافة إلى طولها أو قصرها.

قصائد عن الفتح

يبدو أن الشهادات الهندية الأقدم عن الفتح قد وجدت تعبيراً طبيعياً لها في عدة أناشيد ألفها على المنوال القديم شعراء من الناهوا ممن بقوا على قيد الحياة. هكذا يمكن استذكار تلك القصائد التي تسمى "أناشيد حزينة" أو مرثيات، الأولى منها تصف الأيام الأخيرة من حصار تينوشتيتلان، بينما الثانية تتحدث عن ضياع الشعب المكسيكي.

نورد فيما يأتي مقاطع من كلِّ واحدةٍ من تلك القصائد كي نظهر ماهية ردة فعل المكسيكيين، لدى رؤية الدمار الذي حل بعالمهم وأسلوب حياتهم القديم :

في الطرقات ترقد سهامٌ مكسرة

وشَعرٌ بشريٌّ مبعثر

البيوت صارت بلا سقوف

وجدرانها محمرة

الديدان تتزاحم في الشوارع والساحات

وعلى الجدران أدمغةٌ ملطخة

المياه صارت حمراء كما لو أنها مصبوغة

وعندما نشربها فكأنما نشرب ماءً أُجاجاً

كنا نضرب خلال ذلك جدران الطوب

وميراثنا شبكة من الثقوب

بالتروس كانت حمايتها

لكن ولا حتى بتروسٍ يمكن احتمال وحشتها

ابكوا يا أصدقائي

ليكن في علمكم أنه بهذه الوقائع

قد خسرنا الأمة المكسيكية

لقد أَجَنَ[1] الماء والطعام

هذا ما فعله واهب الحياة[2] في تلاتيلولكو...

كما يشير الدكتور أنخيل ماريا غاريباي، في تحليله لتلك الوثائق في كتابه "تاريخ أدب الناهوا"، فإن القصيدة الثانية ربما تعود إلى العام ١٥٢٣، وأما الأولى فيمكننا أن نضع لها العام التالي ١٥٢٤ .

رواية تلاتيلولكو مجهولة المؤلف (١٥٢٨)

إضافةً إلى القصائد هناك رواياتٌ هنديةٌ خالصةٌ مكتوبةٌ منذ العام ١٥٢٨. يكتسي أهميةً في هذا الاتجاه "المخطوط ٢٢" الموجود في مكتبة باريس الوطنية، والمعروف بعنوان "حوليات تاريخية عن الأمة المكسيكية"، وقد كتبه مؤلفون مجهولون من مدينة تلاتيلولكو نحو العام ١٥٢٨.

إن شهادةً قيمةً مثل هذه تكشف أمراً غير عاديّ حقاً: ألا وهو أن مجموعةً من المكسيكيين قبل تأسيس مدرسة سانتا كروث، قد أتقنوا تماماً الأبجدية اللاتينية، واستخدموها لتدوين شتى الذكريات عن أسلافهم، وفوق ذلك كله رؤيتهم الخاصة عن الفتح.

لهذه الحوليات قيمةٌ وثائقية، ومن وجهة نظرٍ أدبية وإنسانية هي أكثرُ قيمةً بكثير، لأنها ترسم للمرة الأولى بتفاصيل ليست قليلة لوحة دمار ثقافة الناهوا، كما شاهدها بعض الناجين.

---

(١) أَجَنُ الماءُ: إذا تغيّر لونه وطعمه ورائحتهُ.

(٢) الغزاة الإسبان الذين ظُنَّ أنهم آلهة.

رواية شهود ساهاغون

يليها في الأهمية والقدم نص عام ١٥٢٨، وهي الرواية الأشمل حول الفتح، التي بإشرافٍ من الراهب برناردينو دي ساهاغون، كتبها بلغة الناهوا عددٌ من طلابه الهنود من تلاتيلولكو، مستفيدين من روايات بعض كبار السن، ممن عايشوا الفتح.

كما يبدو فإن الصيغة الأولى لهذا النص بلغة الناهوا، هي "فجةٌ كما كانوا هم يلفظونها"، وفق تعبير ساهاغون، و تم الانتهاء منها نحو العام ١٥٥٥. فيما بعد عمل الراهب برناردينو ملخصاً بالقشتالية عنها. وقد وجدت إعادة صياغةٍ لها أيضاً بالناهوا، تم الانتهاء منها نحو ١٥٨٥، وأُدخل عليها حسب ساهاغون، كثيرٌ من التصحيحات، مقارنةً بالأولى، التي "وردت فيها بعض الأشياء بشكل خاطئ بينما أشياء أخرى قد أغفلت ولا يجدر إغفالها..."

لا يمكننا القول ماذا كسب النص أو خسره بهذا التعديل؛ لأنه لا يُعرف مصير النص الأصلي الذي تمت مراجعته. الحاصل هو أن رواية الفتح المحفوظة الآن بفضل رواة ساهاغون، تشكل الشهادة الأوسع من بين الشهادات التي وصلت إلينا. ترد فيها النذر العديدة التي شُوهدت "عندما لم يكن قد جاء الإسبان بعد إلى هذه الأرض"، (يضمها الفصل الأول) حتى أحد الخطابات "التي توعد فيها إرناندو كورتيس جميع سادة مكسيكو، تيتزكوكو وتلاكوبان" مطالباً إياهم بتسليم الذهب وكنوزهم العديدة.

في هذا الكتاب نضمّن كثيراً من الفقرات من هذه الشهادة القيمة.

الشهادات التصويرية الرئيسية

لدى تأمل ما أورده رواة ساهاغون وما جمعه رجالٌ من الناطقين بلغة الناهوا، نجد استمرار طريقتهم القديمة في كتابة التاريخ، على أساس الرسومات. نذكر هنا فقط بعض أعمالهم الرئيسية في هذا الاتجاه، وهي الرسومات الواردة في النص الناهواتلي لرواة ساهاغون، الذي يحفظ اليوم باسم "مخطوط فلورنتينو".

أما لوحة تلاكسكالا الشهيرة، من أواسط القرن ١٦ فتقدم في ثمانين لوحةً رواية أهل تلاكسكالا، حلفاء الفاتحين.

لدينا سلسلة الرسومات الموجودة في "مخطوط ١٥٧٦" المعروف أيضاً باسم "مخطوط أوبين"، الذي إضافة إلى نصوصٍ مهمّة ترد فيه رسوماتٌ توضيحية. يوجد أيضاً رسوماتٌ للسكان الأصليين في المخطوط المعروف ب "مخطوط راميرث"، ذلك عائدٌ ربما لعملية جمع المعلومات التي قام بها في السنوات السابقة لعام ١٥٨٠ اليسوعي خوان دي توفار، أضف إلى ذلك الرسومات الواردة في عمل الراهب دييغو دي دوران و الذي كما هو معلومٌ كان له اطلاعٌ على كثيرٍ من الشهادات الهندية المختفية اليوم. من هذه المصادر التصويرية، تأتي الرسومات التوضيحية التي يتضمنها هذا الكتاب التي نُسخت بريشة ألبيرتو بيلتران الماهرة.

رواياتٌ أخرى أكثر إيجازاً

إضافةً إلى المصادر التصويرية المذكورة، ثمّة كثيرٌ من الروايات الهندية الأقل أهميةً، وسنورد عدة مقاطع منها. في مخطوط أوبين المذكور، واسمه

أيضاً "مخطوط ١٥٧٦" نجد نصوصاً عديدة مثيرةً للإهتمام. منه أُخذت إحدى الروايات الهندية حول ما يعرف ب "مذبحة المعبد الكبير" ونوردها في الفصل العاشر من هذا الكتاب.

شهاداتٌ مهمّةٌ أخرى يقدمها لنا فرناندو ألفارادو تيثوثوموك في مدونتيه "مكسيكية" و"مكسيكايوتل"، وأيضاً المؤرخ الشهير الذي أصله من شالكو، دومينغو فرنسيسكو دي سان أنطون مونيون شيمالتاين كواوتيلهوانيتزين، الذي اقتبسنا من كتابه "الرواية السابعة" النص الوارد في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب، والذي يصف التحريات التي قام بها كورتيس بعد أن استُولي على المدينة.

شهادات حلفاء كورتيس من السكان الأصليين

يبقى هذا العرض حول الفتح ناقصاً إذا لم يتضمن، على الأقل في بعض الحالات، شهادات بعض الكتاب الهنود والهجناء، الذي يفتخرون بانحدارهم من سلالة الذين تحالفوا مع كورتيس من أجل إيقاع الهزيمة بالمكسيكيين. الرسوم التي يقدمونها لنا عن بعض الأحداث، المختلفة عن أوصافٍ أخرى كان قد سجلها السكان الأصليون، لا تخرج عن العنوان العام لهذا العمل "رؤية المغلوبين". لأنه صحيحٌ أن أقوام تلاكسكالا وتيتزكوكو قد قاتلوا إلى جانب كورتيس، لكن من الصحيح أيضاً أن عواقب الفتح جاءت سيئةً عليهم كما على بقية شعوب الناهوا: فجميعهم أُخضعوا وخسروا إلى الأبد جزءاً غير يسيرٍ من ثقافتهم القديمة.

من هذه الشهادات، إضافةً إلى لوحة تلاكسكالا المذكورة، نضيف هنا بعض النصوص المأخوذة من تاريخ تلاكسكالا، التي كتبها بالقشتالية دييغو مونيوث كامارغو، وهو رجلٌ هجينٌ عاش في النصف الثاني من القرن ١٦. مثيرةٌ للاهتمام بشكل خاص روايته المغرضة بشكلٍ واضحٍ عن مذبحة شولولا، وهي مُتضَّمنةٌ في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

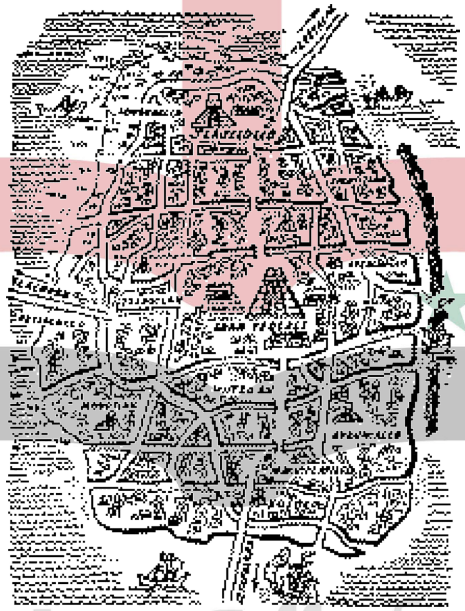

مدينة تينوشتيتلان

التفسير التاريخي للفتح من زاوية نظر أهل تيتزكوكو، يقدمه لنا سليل بيت تيتزكوكو الشهير السيد فرناندو دي ألفا اشتليلشوشيتل.

"الرواية ١٣"، وأيضاً كتابه "التاريخ الشيشيميكي" المكتوبان باللغة القشتالية يحتويان على معلوماتٌ كثيرةٌ جمعها إشتليلشوشيتل نقلاً عن مصادر أصليةٍ قديمةٍ بلغة الناهوا، وهي اليوم مفقودة، لكن تم تفسيرها

بمنظورٍ مختلفٍ جداً عن منظور كتّاب مكسيكو وتلاتيلولكو. إن نصوص المؤرخ إشتليلشو شيتل التي يتم إيرادها هنا هي في بعض الحالات مثيرةٌ للاهتمام حقاً. واحدةٌ من تلك اللوحات ترسم ردة فعل العجوز الهندية ياكوتزين، والدة الأمير إشتليلشوشيتل، ابن نيزاهوالبيلي وحليف كورتيس، التي نعتت ابنها ب "المجنون" و"فاقد العقل"؛ لأنه اعتنق بسرعةٍ دين "هؤلاء الهمج" (الإسبان) الذين اقتحموا بعنفٍ شديدٍ منطقة الأناهواك.

هذا هو توصيفٌ عامٌّ للمصادر الهندية الرئيسة التي منها تأتي النصوص والرسوم التوضيحية التي نقدمها في هذا العمل، والتي حُفظت من خلالها شهادة من رأوا وعانوا أهوال الفتح، دون مبالغةٍ يمكن تأكيد أن هذه الوثائق، مع القصور الذي قد يعتريها، تشكل لوحة السكان الأصليين عن الفتح: رؤية المغلوبين.

القيمة الإنسانية لروايات السكان الأصليين عن الفتح

إن إجراء دراسةٍ مقارنةٍ للنّصوص والرسومات الهندية التي تم توصيفها للتوّ يبين دون شكٍّ نقاط الاختلاف الكثيرة حول الحوليات والروايات الإسبانية عن الفتح. رغم ذلك، لا يهمنا كثيراً التثبت من الاختلافات والتناقضات المحتملة بين المصادر الهندية والإسبانية، ما يهمنا هنا هو النصوص التي ستضاف كشهادةٍ إنسانيةٍ عميقة، ذات مستوىً أدبيٍّ رفيع، تركها لنا أولئك الذين عانوا المصيبة الكبرى: رؤية دمار مدنهم وبلداتهم، وفوق ذلك كله أسسَ ثقافتهم.

ليس من المبالغة القول إنه في هذه الروايات التي تركها إنسان الناهوا توجد مشاهد ذات دراماتيكيةٍ موازيةٍ للروايات الملحمية الكلاسيكية، لأن هوميروس ترك لنا في الإلياذة عند رثاء خراب طروادة ذكرى مشاهد ذات مأساويةٍ حيّة. من جانبهم عرف الكتاب الأزتيك -"أصحاب الحبر الأسود والأحمر"- أيضاً استحضار اللحظات الأكثر دراماتيكية عن الفتح. يكفي مثالاً للبرهنة عما قلناه إيراد بعض المقاطع المأخوذة عن الوثائق التي تُقدم في هذا الكتاب.

في سطورٍ قليلةٍ يروي شهود ساهاغون كيف بدأت المذبحة الرهيبة في المعبد الكبير التي ارتكبها بيدرو دي ألفارادو. بعد وصف بداية حفل توشكاتل، "بينما تتصل أهازيج بأهازيج"، يظهر فجأةً الإسبان وهم يدخلون الفناء المقدس:

"في الحال يحاصرون الراقصين، يندفعون إلى مكان الطبول: سددوا ضربةً لقارع الطبل: بتروا كلتا ذراعيه. وقطعوا رأسه: تدحرج الرأس بعيداً. في الحال راح جميع الإسبان يضربون بالسيف، يضربون الناس بالرماح ويطعنونهم، وبالسيوف يجرحونهم. يهاجمون البعض من الخلف، في الحال، تسقط أحشاؤهم على الأرض مبعثرةً. آخرون يتمّ تحطيم رؤوسهم: يخسفون رؤوسهم، وتتطاير الرؤوس إرباً. لكن آخرين وجهوا لهم ضرباتٍ على أكتافهم: تمزقت وتهشمت أجسامهم. هؤلاء يجرحونهم في أفخاذهم، وأولئك يطعنونهم في بطون أفخاذهم، والأبعد قليلاً في بطونهم. كل الأحشاء تسقط أرضاً. ووُجد البعض يركض عبثاً: راحوا يجرجرون

أحشاءهم وأقدامهم متشابكةٌ بها. تواقين لإنقاذ أنفسهم، لا يجدون طريقاً يتجهون إليه...".

لوحةٌ أخرى وهي عملٌ فذٌّ في الفن الوصفي عند الناهوا، ترسم لنا كيف رأوا تلك "الغزلان أو الوعول" التي يعتلي الإسبان ظهورها ألا وهي الخيول. موتولينيا في المقطع الذي ذُكر أعلاه يحكي لنا عن "دهشة الهنود لدى تأمل الأحصنة وما يفعله الإسبان على ظهورها."

فيما يأتي يقدم رواة ساهاغون وصفهم الخاص والأقوى للغاية بحيث يبدو وكأنه استحضارٌ لذلك الوصف التصويري للحصان الذي تركه مكتوباً باللغة العبرية مؤلف "كتاب أيوب". لنقرأ الوصف الذي قدّمه رجالُ أمريكا الوسطى:

"تأتي "الغزلان" التي تحمل على ظهورها الرجال، بألبستهم القطنية، بتروسهم الجلدية، برماحهم الحديدية. سيوفهم تتدلى من أعناق "غزلانهم"، هذه تحمل أجراساً، وُضعت لها أجراس، تأتي حاملةً أجراسها وهذه تصدر ضجيجاً، يتردد صدى الأجراس. هذه "الخيول" هذه "الغزلان" تلهث وتصهل. تتصبب عرقاً: كنبع ينبجسُ منها العرق. ورغوة أنوفها تنزل قطراتٍ إلى الأرض: إنها كماء مصبّن بنوع من النباتات: قطراتٌ كبيرةٌ تتساقط. وأما عندما تجري فإنها تُحدث جلبةً وتُصدر ضجيجاً، يُستشعر الصوت كما لو أن حجارةً تتساقط على الأرض. بعد ذلك تنثقب الأرض، وتمتلئ حفراً حيث تضع قوائمها. تتشقق الأرض من تلقاء نفسها حيث تضع "الخيول" يداً أو رجلاً...".

أخيراً وكي لا نطيل أكثرَ سلسلة الأمثلة التي يمكن أن تضاف فإننا ننسخ فقط الرواية الموجزة التي حفظها مؤلفون مجهولون لمخطوط تلاتيلولكو (١٥٢٨)، ويُذكر فيها المصير الذي حل بأولئك الحكماء أو الكهنة أتباع الإله كيتزالكواتل، الذين أتوا لتسليم أنفسهم للفاتحين في كويواكان، بعد أن تم إخضاع كامل وادي المكسيك.

وصلوا يتأبطون رسوماتهم، إنهم حاملو الحكمة القديمة، التي يرمز لها بـ "الحبر الأسود والأحمر لمخطوطاتهم". لا نعلم لماذا اختاروا تسليم أنفسهم. لكن الفاتحين أطلقوا باتجاههم الكلاب. واحدٌ فقط تمكن من الهرب.

لنستمع إلى الشهادة الهندية:

"وثلاثة حكماء من إيهيكاتل، أصلهم من تيتزكوكو أكلتهم الكلاب. هم فقط أتوا لتسليم أنفسهم، لم يجلبهم أحدٌ البتة. فقط كانوا حاملين أوراقهم وعليها الرسومات (حوليات). كانوا أربعةً، هرب أحدهم: فقط ثلاثةٌ تم الإمساك بهم، هناك في كويواكان" .

إن من يقرأ الكتاب الحالي، لا يمكن إلا أن يتفاجأ عندما يجد في الوثائق مشاهد لا تحصى، ذات دراماتيكيةٍ عاليةٍ وذات صبغةٍ فنيةٍ تشكيليةٍ بعض الشيء، بحيث تبدو و كأنها دعوة للفنان أو الرسام كي ينقلها إلى اللوحات أو الورق .

من جهةٍ أخرى فإنّ غنى المعلومات و الطريقة التي يقدمها بها الناهوا في رواياتهم تفتح دون شكٍّ الطريق لمواضيع بحثٍ كثيرةٍ. لنفكر مثلاً بدراساتٍ مثل "صورة الهندي عن الآخر" (أي الإسبان)، التي يمكن أن

تُظهر الجهود المتنوعة التي بذلها الأزتيك لفهم من هم هؤلاء الرجال المجهولون، الذين أتوا من الطرف الآخر للمياه الشاسعة. من منظور أساطيرهم القديمة اعتقد المكسيكيون أن كيتزالكواتل والآلهة الآخرين قد عادوا من رحلتهم التي «بدؤوها» يوماً في الزمن الغابر باتجاه الشرق.

لكن لدى التعرف على الفاتحين الجدد عن قرب، لدى رؤية ردة فعلهم أمام الأغراض الذهبية التي أرسلها لهم موكتيثوما، لدى علم السكان الأصليين بمذبحة شولولا وعند تأملهم لهم وجهاً لوجه في تينوشتيتلان، تلاشت فكرة أن كيتزالكواتل والآلهة قد عادوا. لمَّا حاصر الإسبان المدينة، راح الهنود ينعتونهم بشكلٍ متكررٍ بـ "الهمج".

رغم ذلك، لا ينسى أبداً مؤرخو الناهوا القوة المادية المتفوقة للذين ظُن بدايةً أنهم آلهة. بشكلٍ مضمرٍ ووفقاً لفكرهم الرمزي يستوعبون صورة الآخر الغريب بشكلٍ جذري. إن ملامح هذه الصورة موجودةٌ تحديداً في النصوص التي كتبوها عن الفتح. لكن هذا ليس المظهر الوحيد الذي يمكن دراسته، فإضافةً إلى العمل التاريخي البحث من خلال مقارنة شهادات السكان الأصليين مع شهادات الإسبان، من الممكن مقارنة الأفكار الخاصة لهذا العالم السحري للهنود والمملوء بالرموز، مع العقلية الأكثر عملية وعبقرية لمن هم متفوقون تقنياً ويصبون اهتمامهم بشكلٍ رئيسٍ على الذهب.

ولدى المضي قدماً بروح المقارنة هذه يمكن استنتاج سلوكٍ ثالث، وهو الموجود في النصوص الغربية. نقصد الانطباع الذي تركه الفتح في نفوس المبشرين الأوائل. إن موتولينيا وأولموس ولاس كاساس وساهاغون لم يروا بأعينهم ازدهار العالم ما قبل الإسباني السابق للفتح، لكنهم عرفوا

على الأقل شهاداتٍ قَدَّمها رواة عن ثقافتهم القديمة. مكنتهم الأخبار التي استطاعوا إيصالها عن ماضي الناهوا القريب من إجراء تقييمٍ للفتح. بشكلٍ خاص فإن الراهب برناردينو دي ساهاغون الذي جمع معلوماتٍ كثيرةً حول المؤسسات الثقافية في عالم الناهوا ما قبل الإسباني، يعبر بقسوةٍ لكن بعدالةٍ عن نتائج الفتح.

لا يوجد متسعٌ هنا لإضافة المقاطع التي كتبها الراهب برناردينو في مواضع مختلفةٍ من كتابه "التاريخ العام لأشياء إسبانيا الجديدة"، حول ما يسمونه ب "الفتح". لا يسعنا مع ذلك إلا أن ننقل بعض السطور التي يتم فيها مقارنة خراب السكان الأصليين بلعنة خيريمياس والتي أطلقها ضد يهودا و القدس، مهدداً إياهما بدمارٍ كامل. بعد أن يورد ساهاغون جزءاً من الفصل الخامس من كتاب خيريمياس، يختتم قائلاً:

"هذا بالحرف ما حصل لهؤلاء الهنود مع الإسبان إذ سُحِقُوا ودُمِّرُوا هم وأشياؤهم بحيث لم يتبق لهم أي شبهٍ مع ما كانوا عليه سابقاً. هكذا عُدُّوا همجاً وأناساً وضيعي المستوى (في الحقيقة الغالبون يتمادون على أممٍ أخرى لها رفعةٌ في السياسة ويزدرون طغاةً لهم نفس أسلوبهم)."

هذا هو رأي رجلٍ فذّ، ما كان، بخلاف كثيرين من مواطنيه، يبتغي الذهب، وإنما المعرفة الكاملة لثقافةٍ إنسانيةٍ عظيمة، وأيضاً ضم قيمها وأناسها إلى إنجيل المسيح.

نشكر بشكل خاص الدكتور أنخيل ماريا غاريباي الأستاذ ذا الأيادي البيضاء، الذي بروحٍ إنسانيةٍ أعاد اكتشاف هذه النصوص، نشكره على كرمه بالسماح لنا بالاستفادة دون قيودٍ من جميع الترجمات التي قام بها

لكل النصوص التي نوردها هنا تقريباً، وأيضاً نشكره على مراجعة أصول هذا الكتاب.

إنّ التفحص الرزين لالتقاء هذين العالمين: الهندي والإسباني، اللذين يتحدّر من اتحادهما الدراماتيكي المكسيك والمكسيكيون، سيساعد على التقييم الأفضل للجذر الأعمق لصراعاتنا و عظمتنا ووضاعتنا، وبكلمةٍ واحدة للقشر و اللبّ المعبرين عن ملامحنا الثقافيّة والعرقيّة.

ميغيل ليون- بورتيّا

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الأول

علامات منذرة بقدوم الإسبان

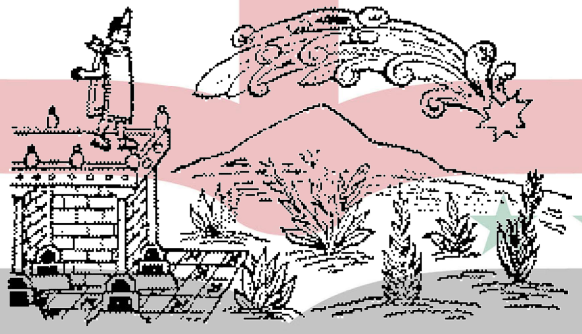

تتضمنُ الوثائقُ الأزتيكيّة التي نعرضُها في الفصولِ الثلاثة عشر الأولى من هذا الكتاب أحداثاً حصلت قبيل مجيء الإسبان إلى شواطئ خليج المكسيك، حتى المشهد النهائي الذي تسقط فيه مدينة مكسيكو-تينوشتيتلان في قبضة الفاتحين.

يُشكّلُ الفصلان الأخيران الرابع عشر والخامس عشر خاتمة "رواية الفتح"، التي كتبها في عام ١٥٢٨ عدة شهود مجهولين من تلاتيلولكو، وأيضاً بضع قصائد حزينةٍ مشهورةٍ عن الفتح.

إذا ما رتبنا النصوص المختلفة وفق التسلسل الزمني لأحداثِ الفتح وعملياته، فإنَّ النتيجة هي في بعض الحالات شهاداتٌ متباينةٌ فيما بينها.

لكننا لا نبغي هنا أن نحلّ المسائل التاريخية التي يولّدها تعدّد الروايات؛ لأنّ ما يهم بشكلٍ أساسيّ هو القيمة الإنسانية للنصوص التي تعكسُ ليسَ الأحداثَ التاريخيةَ فحسب، وإنّما أيضاً الطريقة التي فهم وفسّر بها الأحداثَ "هنودُ الناهوا" من مختلف المدنِ و الأصُول.

تتشابه الوثائق إلى حدٍّ كبيرٍ فيما بينها، حيث تروي جميعها العلامات والنذر المشؤومة التي يؤكدها المكسيكيون، ولا سيَّما موكتيثوما، منذ ما قبل عشر سنوات من وصول الإسبان.

النذر وفق شهود ساهاغون

نذير الشؤم الأول: قبل عشر سنواتٍ من قدوم الإسبان ظهرت علامةٌ مشؤومةٌ في السّماء. شيءٌ مثل سنبلةٍ ناريّة، شيءٌ كشعلةٍ من نار، شيءٌ كالشّفق: كان يبدو كما لو أنّه يقطرُ، كما لو أنّه يخزُّ في السماء. يبدو عريضاً من الأسفل ودقيقاً من الأعلى. في ناحية وسط السماء، في ناحية مركز السّماء، يصلُ إلى أعلى السّماء.

وبهذا الشكل كانت تُرى تلك الشعلة، تظهر من جهة الشرق: بهذه الهيئة تستمر إلى منتصف الليل. ولا تزال ظاهرةً، باديةً حتى الصباح، إلى أن تخفيها أشعة الشمس.

مدتها: استمرت عاماً. بدأت في العام ١٢ - بيت، (وذلك وفق مسمّيات تقويمهم).

ولَمَّا بدت تلك الظاهرةُ حصلَ هياجٌ عام: راح الناس يضربون على شفاههم، حدثَ هرجٌ ولغطٌ كبيران، راجت شائعاتٌ كثيرة.

نذير الشؤم الثاني الذي حصل هنا في مكسيكو: من تلقاءِ نفسها اضْطرمت ناراً (دار الإله)، اشتعلت فيها النار: لم يضرم أحدٌ فيها ناراً، وإنما بفعلٍ عفويٍّ احترقت دار هويتزيلوبوشتلي. أي "ركنه الإلهي"، المكان المسمى "تلاكاتيكان" ("دار الأمر").

ظهر ذلك جلياً: تشتعل الأعمدة. من الداخل يخرجُ لهيبُ النيران، ألسنةُ النار، لظى النار.

التهمتِ النارُ سريعاً كلّ أخشاب الدار برمتها. في الحال تعالت الأصواتُ الصاخبة، يقولون: "أيها المكسيكيون تعالوا بسرعة: هيا لنطفئه! اجلبوا جراركم!... "لكن عندما يلقون الماءَ على المعبد، عندما يحاولونَ إخماد النيران فيه، فإنه يزداد أُواراً. لم يتمكنوا من إطفائه: احترق بكامله.

نذير الشؤم الثالث: ضربت صاعقةٌ معبداً. كان مصنوعاً من القش فقط: وهو أحد أبنية معبد تزومولكو الكبير. معبد شيوتيكوتلي. حينها كان يتساقط مطرٌ ليس بغزيرٍ، وإنما هو طلٌّ خفيف. هذا عدّوه نذيراً وعلّق الناس على ذلك: "هي ضربةُ شمسٍ برق ليس إلا"، ولم يُسمع أيُّ رعدٍ البتّة.

نذير الشؤم الرابع: كانت الشمس لا تزال مضيئةً عندما سقطت نارٌ، وانشطرت إلى ثلاثة أجزاء: خرجت من موضع غروب الشمس: سارت مباشرةً إلى موضع شروق الشمس: كما لو كانت جمرةً، راح يهطل مطرٌ من شررٍ. طويلاً امتد ذيل النار، بعيداً وصل ذَنَبُها. ولَمَّا تمت رؤيتها حصل هرجٌ كبير: كما لو أنّهم يقرعون أجراساً.

نذير الشؤم الخامس: صار الماء يغلي: جعله الريح يضطرمُ غلياناً. كما لو أنّه يغلي بتغيظٍ، كما لو أنه يفورُ ويتقطع أثناء تقلبه. زادت قوّة الماء كثيراً، وارتفع عالياً، ووصل إلى أساساتِ البيوت، فتهدمت وغرقت بالماء. حصل هذا في البحيرة التي نحن فيها [مدينة مكسيكو كانت مبنيةً وسط بحيرة].

نذير الشؤم السادس: كثيرٌ من المرات كان يُسمع صوتُ امرأةٍ تبكي، تمضي صارخةً ليلاً، تسير مطلقةً صرخاتٍ كبيرة :

- آه يا أبنائي، آن الأوان لرحيلنا بعيداً! وأحياناً تقول:

- آه يا أبنائي، إلى أين سآخذكم؟

نذير الشؤم السابع: كثيراً ما كان يعلق شيءٌ بشباك الصيادين الذين يعملون في الماء، ذات مرةٍ أمسكوا بطائرٍ رماديّ يشبه اللقلق. إثر ذلك أخذوه كي يراه موكتيثوما في بيت السواد (دار دراسات السحر).

وصلت الشمس إلى ذروتها: انتصف النهار. هناك شيءٌ مثل المرآة في رأس الطائر يشبه القرص، كما لو أنه محفورٌ في وسطه. من خلاله تُرى السماء وفيها نجومٌ ومذنبٌ. عدّه موكتيثوما نذير شؤمٍ سَيِّئاً جداً، عندما رأى النجوم والمذنب.

لكن عندما نظر مرةً أخرى إلى رأس الطائر، رأى مجدداً هناك في العمق كما لو أنّ أشخاصاً يأتون مسرعين، منتصبين، يغذّون المسير. يتبارزون فيما بينهم، وتحملهم على متونها حيواناتٌ تشبه الوعول.

في الحال استدعى سحرته، ورجالُ المعرفة عنده. قال لهم:

- أتعرفون ما الذي رَأيتُ؟ رأيتُ شيئاً مثل أشخاصٍ واقفين يميدون!...

لكن هم حين أرادوا أن يعطوا جواباً، وأمعنوا النظر: اختفى (كل شيء) لم يروا شيئاً.

نذير الشؤم الثامن: كثيراً ما كان يظهر للناس رجالٌ ممسوخون، أشخاص مرعبون. برأسين لكن بجسم واحد، كانوا يأخذون تلك الحالات إلى "دار السواد"، كي يراهم موكتيثوما. لكن بعد أن يراهم يختفون.

شهادة مونيوث كامارغو (تاريخ تلاكسكالا)

عشرةُ أعوامٍ قبل قدومِ الإسبان إلى هذه الأرض، حصلت علامةٌ فسّرها الناس كنذير شؤمٍ غريب، وهي أن ظهر عمودٌ من النار متقدٌ جداً، مشتعلٌ جداً، ذو وضوحٍ ولمعان، و له شررٌ ومن شدة أواره يبدو وكأنّه يُطلق غباراً من الشّرر، لدرجة أن الضوء الذي يخرج من الشررِ يُحدث ضياءً يبدو وكأنه انبلاج ضوء الصباح قبيل شروق الشمس. ذلك العمود يبدو مسمّراً في السماء، أوّلُه في قاع الأرض حيث يبدأ عريضاً جداً، ينحف من أسفله إلى أعلاه مشكلاً رأساً يلمس السماء على شكل هرم.

وكانت تلك النار تظهر قبيل المغيب، وتمتد إلى منتصف الليل وإلى الصباح فإلى وقت الضحى إذ تغلبها قوة الشمس وسطوعها وأشعتها. هذه العلامة استمرت لمدة سنةٍ، و بدأت منذ أول العام الذي يسميه الناس ١٢ – بيت، والذي يقابله في حسابنا القشتالي العام ١٥١٧. وعندما كان

يظهر هذا النذير فإن الناس يُظهرون ألماً كبيراً، ويصرخون بأعلى أصواتهم بسبب الذعر، ويضربون بأكفهم على أفواههم، كما جرت العادة عندهم. كل هذا البكاء والحزن كان يترافق بتقديم قرابين بشرية كما اعتادوا فعله كلما وجدوا أنفسهم في شدةٍ ومحنةٍ، كالظرف الذي يمرون فيه، إذ تنامت أصناف القرابين و التطير.

بهذا التوتر والفزع، مغتمين من هذا الرعب الكبير، راحت خيالاتهم تسرح فيما يمكن أن يعنيه هذا المستجد الغريب، حاولوا أن يعرفوا عبر العرافين والسحرة ما قد تعنيه هذه العلامة الغريبة التي لم يُر مثلها ولم يُسمع بها من قبل .

يجب اعتبار أنه قبل مجيء الإسبان بعشر سنواتٍ بدأت تشاهد هذه العلامات، إضافةً إلى أن التاريخ المسمى ١٢ - بيت يوافق العام ١٥١٧ أي قبيل سنتين من وصول الإسبان إلى هذه الأرض .

النذير وعلامة النحس الثانية التي رآها أهل مكسيكو هي أن معبد الشيطان اشتعل واحترق، وهو ما يسمونه معبد هويتزيلوبوشتلي، دون أن يقدر أحدٌ على إطفائه، وهو الموجود في حي تلاتيلولكو .

كان هذا الحريق كبيراً جداً، وحصل فجأةً، بحيث إنها خرجت عبر أبواب ذلك المعبد ألسنةٌ من لهبٍ بدت وكأنها تبلغ عنان السماء. في لحظةٍ اشتعل والتهب كل شيء، ولمَّا ما أمكن فعل شيء البتة، فقد "تهاوى". رافق ذلك اهتياجٌ و صياح، والناس ينادون قائلين:

"أيها المكسيكيون هلمّوا بسرعةٍ واجلبوا معكم جرار الماء لإخماد النيران!"، وهكذا أتى كل من استطاع تلبية نداء الاستغاثة. وعندما يقتربون لإلقاء الماء على النار –وقد جاء لأجل ذلك جمعٌ كبيرٌ من الناس- عند ذلك يستعر اللهب بقوةٍ أكبر، وهكذا بلا حولٍ و لا قوةٍ انتهى محترقاً كله.

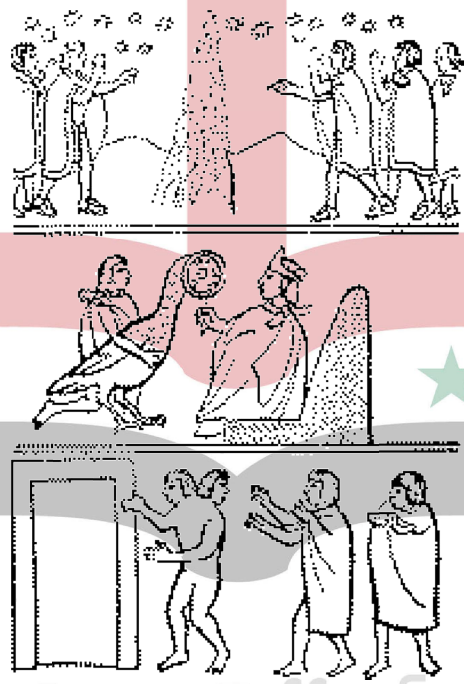

نذر مشؤومة

النذير والعلامة الثالثة هي أن سقطت صاعقةٌ على معبدٍ وثنيّ سقفه من القشّ، وتسميه الناس هنا شاكال وأيضاً تزونمولكو وهو مكرسٌ للصنم شيوتيكوتلي، حينها نزل مطرٌ خفيفٌ ناعمٌ من السّماء دون أيّ رعدٍ أو برقٍ على ذلك المعبد. وهذا ما عدّوه نذير شؤمٍ عظيماً؛ إذ احترق كل شيءٍ وتفحّم.

العلامة الرابعة هي أنه في وقت النهار والشمس لا تزال ساطعةً خرجت مذنباتٌ من السماء عبر الجو عددها ثلاثةٌ من جهة المغرب، و"تسير باتجاه المشرق" بكل قوةٍ وزخمٍ، ويخرج منها ويتلاشى جمرٌ من نارٍ أو شررٌ خلال مسيرها باتجاه الشرق، وتجر وراءها ذيولاً كبيرةً، وهي طويلةٌ وعظيمةٌ. في الوقت الذي شوهدت فيه هذه العلامات حصل اهتياجٌ، وأيضاً ضجةٌ كبيرةٌ وصراخٌ وصياحٌ بين الناس.

النذير والعلامة الخامسة هي أن البحيرة المكسيكية هاجت دون أيّ رياحٍ، وصارت تفور وترغو وتزبد بحيث تعلو، وتصعد إلى ارتفاعٍ كبيرٍ لدرجة أن المياه بللت أكثر من نصف بيوت مكسيكو، وكثير منها انهارت وغرقت وغطتها المياة بالكلية.

النذير و العلامة السادسة: مراتٍ كثيرةٍ وليال عديدة، كان يُسمع صوت امرأةٍ تبكي بصوتٍ عالٍ قائلةً وهي تنوح بالبكاء والعويل وتطلق التنهدات: آه يا أبنائي! سوف نضيع عن آخرنا... وأصواتٌ أخرى تقول: آه يا أبنائي إلى أينَ يمكنني أن آخذكم و أخبئكم...؟

نذير الشؤم السابع هو أن بعض ملاحي البحيرة المكسيكية، ملاحين وقراصنة وصيادين، اصطادوا طائراً رمادياً يشبه الكركي، وحملوا هذه الأعجوبة إلى موكتيثوما لكي يراها، وكان في قصور الصالة السوداء قبيل انحدار الشمس إلى المغيب، إذ لايزال النهار واضحاً، وذلك الطائر كان غريباً جداً ومدهشاً بحيث لا يمكن تصور أو تقدير غرابته. يوجد في رأسه عرفٌ دائريٌ على شكل مرآةٍ مدورةٍ صقيلةٍ وواضحةٍ وشفافة، عبرها

شوهدت السماء والأبراج والنجوم وما يسميه المنجمون برج الجوزاء، ولما رأى موكتيثوما ذلك استغرب كثيراً، فقد اندهش من هذا النذير والعلامة السيئة لما شاهد عبر عرف ذلك الطائر نجوم السماء.

ولما أعاد موكتيثوما الكرَّة ثانيةً ليشاهد ويتأمل عبر عرف ورأس ذلك الطائر رأى عدداً كبيراً من البشر يأتون سائرين، بعضهم سير عشواء، وآخرون في كتائب منتظمة، متزينين ومتأهبين للحرب، ويبارزُ بعضهم بعضاً وهم يمتطون وعولاً وحيواناتٍ أخرى، وعندئذٍ بعد أن رأى الكثير من الرؤى المشوشة، أرسل في طلب العرافين والمنجمين الذي يعتبرونهم حكماء. لما صاروا في حضرته أنبأهم عن سبب دهشته:

"سوف تعلمون يا أصدقائي الحكماء الأعزاء كيف رأيت أشياءَ عظيمةً وغريبةً عبر عرف طائرٍ جلبوه لي كأعجوبةٍ غريبةٍ لم يُر مثلها أو لم يُصطد قط، وعبر العرف نفسه الشفاف كالمرآة رأيت بشراً قادمين ومنتظمين في صفوف، ولأنكم سوف ترونه انظروا أنتم وستشاهدون ما شاهدت".

ولما أرادوا أن يجيبوا سيدهم عما بدا لهم شيئاً لم يُسمع به من قبل، لكي يرتبوا رأيهم، وتنبؤاتهم وتكهناتهم أو توقعاتهم، حينئذٍ اختفى الطائر، وهكذا لم يتمكنوا من إعطاء أي حكمٍ أو تكهنٍ صحيحٍ وحقيقي.

النذير و العلامة الثامنة التي حصلت في مكسيكو هي أنه كان يظهر، ويأتي رجلان متحدان بجسمٍ واحد، يدعو العامة ذلك بـ: "الرجل ذو الرأسين". وعلاماتٌ أخرى هي رؤية أجسامٍ برأسين متصلين بجسمٍ واحدٍ وكانت تؤخذ إلى القصر، إلى "القاعة السوداء" إلى حيث موكتيثوما العظيم، وحينما يصلون إلى هناك تختفي تلك الأجسام، وتصبح غير مرئية، هذه العلامات

وغيرها كانت تنبئ الناس بنهايتهم والقضاء عليهم، فهم يقولون إنه ستأتي النهاية وكل الناس سوف ينتهون، وإنه سيخلق بشرٌ جديدون، ويأتي سكانٌ جددٌ آخرون من العالم. وهكذا يمكثون حزينين ومذعورين لا يعلمون أي تسويغ يجب إطلاقُه على أشياء غريبةٍ، طارئةٍ وجديدةٍ لم تُر ولم يُسمع بها من قبل.

نذر و علامات حصلت في تلاكسكالا

عدا عن هذه العلامات، فقد حصلت علاماتٌ أخرى في مقاطعة تلاكسكالا قبل قدوم الإسبان. العلامة الأولى هي أنه في كل صباحٍ كان يُرى نورٌ ساطعٌ يخرج من جهة المشرق قبل شروق الشمس بثلاث ساعات، ذلك الضوء الواضح هو عبارةٌ عن ضبابٍ أبيض شديد الوضوح، ويصعد إلى السماء، ولما لم تكن تُعرف ماهيته كان يتسبب بذعرٍ واندهاشٍ كبيرين.

أيضاً شاهدوا علامةً أخرى عجيبة، وهي صعود دوامةٍ من الغبار على شكل كم الثوب، وكانت تصعد من أعلى سلسة جبال ماتلالكوي التي يسمونها الآن سلسلة جبال تلاكسكالا أو مالينشي، وكان ذلك الشيء يرتفع إلى علوٍّ شاهقٍ وكأنه يعانق السماء. هذه العلامة تمت رؤيتها مراتٍ كثيرة وعلى مدار عامٍ كاملٍ وأثارت الخوف والدهشة على خلاف ما اعتادوه من قوة الشكيمة والجَلَد.

لم يظنوا ولم يفهموا إلا أن الآلهة قد نزلت من السماء، وهكذا بهذا المستجد الغريب طار الخبر في كلّ صقع. مهما يكن فإنه في النهاية قد عُلم بوصول هؤلاء البشر الغرباء والجدد، على الخصوص في مكسيكو، حيث كانت رأس هذه الإمبراطورية ودرّة مملكتها.

الفصل الثاني

الأخبارُ الأولى عن وصولِ الإسبان

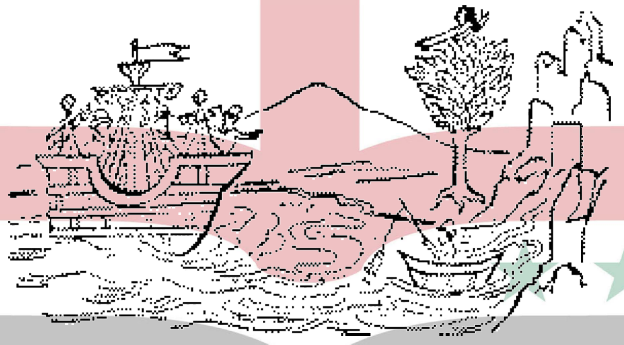

حسب شهادة ألفارادو تيزوزوموك في "الحوليّة المكسيكية" فقد تشوّش عقلُ موكتيثوما بسبب النذر العديدة التي وصفناها في نصوصٍ سابقةٍ لذلك فقد استدعى حكماءَ وسحرةً بغرض استجوابهم. أراد التحري عما إذا كانت هنالك إشاراتٌ عن حروبٍ قادمةٍ، أو عن كوارث غير متوقعةٍ، أو أيّ شكلٍ آخر من البلايا.

لم يتمكن العرافون في الحقيقة من إعطاء جواب. لكن بالمقابل في هذا الوقت ظهر رجلٌ فقيرٌ "ماتيهوال" أي رجلٌ من عامة الشعب، آتياً من شواطئ الخليج بالأخبار الأولى عن وصول أشياء مثل "أبراجٍ أو تلالٍ صغيرةٍ تعوم على سطح البحر". فيها بشرٌ غرباءُ "بشرتهم بيضاء جداً، أشدّ

بياضاً من بشرتنا، وأكثرهم لديهم ذقونٌ طويلةٌ وشعر رؤوسهم يغطي آذانهم ...".

أثار ذلك الخبر اغتمام موكتيثوما، وكما سنرى في هذا الفصل، دفعه التخوف لإرسال مبعوثين برسلٍ وعطايا لمن اعتقد أنهم الأمير كيتزالكواتل الذي سافر يوماً باتجاه الشرق مع آخرين ولم يعد حتى حينه، كما هو معلنٌ في حولياتهم وآثارهم الأدبية.

موكتيثوما يستجوب العرافين

وأمر موكتيثوما مديرَ القصر بأن يستدعي له جميع ولاة البلدات، من كل بلدةٍ واليها. أمرهم بأن يذهبوا إلى القرى الموكلين بها، وأن يبحثوا له عن عرافين هناك، وإذا ما وجدوهم فليأتوا بهم إليه. بعض الولاة جلبوا مثل هؤلاء حتى إذا ما وصلوا وأُخبر موكتيثوما بذلك جيء بهم إليه، إذ دخلوا وجثوا على رُكبهم إظهاراً للتبجيل والاحترام، إذ ذاك خاطبهم قائلاً: هل رأيتم بعض الأشياء في السماء أو في الأرض، في المغاور، في بحيرات الماء العميقة أو العيون والجسور و ينابيع المياه، أو هل سمعتم بعض الأصوات مثل صوت امرأةٍ مفجوعةٍ أو أصوات رجال، هل شاهدتم رؤىً أو أشباحاً أو أشياء أخرى من هذا القبيل؟

بما أنهم لم يروا شيئاً مما يرغب به موكتيثوما ولا صدقوا بشيءٍ مما سألهم عنه، قال لوزيره بيتلاكالكاتل: خذ هؤلاء المكّارين، واحبسهم في سجن كووكالكو الخشبي، وليعترفوا رغماً عنهم. في اليوم التالي استدعى بيتلالكالكاتل وقال له: قل لهؤلاء السحرة أن يصرّحوا بشيءٍ، إذا كان سيأتي

مرضٌ أو طاعونٌ أو جوعٌ أو جرادٌ أو زلازل مائية أو قحط، إذا كانت ستمطر السماء أم لا، فليصرّحوا به، أو إن كانت ستحصل حربٌ على المكسيكيين، أو هل ستحصل ميتاتٌ فجائية، أو موتٌ بسبب وحوشٍ غازية، ألّا يخفوه عني، أو إذا سمعوا سيهواكواتل تبكي، وهي المشهورة في العالم، التي حين سيحصل شيء تُنبئ به هي أولاً، حتى قبل حصوله بمدةٍ طويلة.

أجاب العرافون: ما الذي يمكننا قوله؟ لأنه قد قيل وكتب في السماء ما سوف يحدث، وقد سُمي اسمك في السماء، وما يتعلق بموكتيثوما فعليه وأمامه سيحصل ويجري لغزٌ كبير: إذا كان سيدنا ومولانا موكتيثوما يريدُ أن يعرف عنه فإنه قليلٌ جداً ما نعلمه، وسيتم فهمه في حينه، لأنّ ما أُرسل سيأتي سريعاً، وهذا ما نقوله نحن، لكي ترضى، وهذا سوف يكون وكذلك، فانتظره.

ذهب بعدها الوزير بيتلاكالكاتل، وأبلغ ذلك كاملاً لموكتيثوما، كيف أنّه سيأتي سريعاً ما هو آتٍ. تعجّب موكتيثوما كيف يتطابق هذا مع ما قاله له هنيزاهوالبيلي ملك تيتزكوكو (ابن نيزاهوالكويوتل). قال موكتيثوما لوزير قصره: اسألهم عن هذا الذي سيأتي أو سيحدث من أين سيأتي؟ هل من السماء أم من الأرض؟ من أي جهةٍ؟ من أي مكانٍ؟ ومتى سيحصل؟.

عاد بيتلاكالكاتل لإعادة السؤال على العرافين، لكن لما دخل وفتح الأبوابَ لم يعثر على أحدٍ، و هذا ما أفزعه جداً. ذهب إثرها بيتلاكالكاتل لقص ذلك على موكتيثوما: لما صار بين يديه قال: سيدي، مزقني إرباً أو افعل بي ما تشاء: أتعلم يا سيدي أنه عندما وصلت وفتحت الأبواب، كان المكان خاوياً، ولا يظهر منهم أحدٌ، وكما تعلم يا سيدي أنا آخذ حسابي

واحتياطي التام، فهناك لدي كهولٌ حاذقون كانوا يحرسونهم ويحرسون غيرهم، ولم يشعروا بخروجهم، وأعتقد أنهم طاروا، بما أنهم غير مرئيين ويجعلون أنفسهم لامرئيين، في كل ليلة، ويذهبون إلى أطراف الدنيا، لذا فمن المؤكد أن هذا هو ما فعلوه.

قال موكتيثوما: سحقاً للأنذال، مُر رئيس الجند كواونوشتلي وخازن دار السهام والبقية، بأن يذهبوا إلى قرى أولئك، وأن يقتلوا النسوة والأولاد، وألا يُبقوا منهم أحداً، كذلك أن يَهدموا بيوتهم. أمر بيتلاكالكاتل جمعاً غفيراً من الجند بأن يذهبوا معهم لينهبوا بيوت نساء السحرة، و من ثم تجمعوا وذهبوا إلى تلك البيوت، وقتلوا النسوة بخنقهن بحبال، وأما الأطفال فراحوا يضربونهم على الجدران ليتناثروا إرباً، حتى أساسات البيوت اقتلعوها من جذورها .

وصول رجل من العامة إلى شواطئ الخليج

في غضون أيام قليلةٍ أتى رجل من عامة الشعب من ميكتلانكواوتلا، لم يرسله أحدٌ، ولا أيُّ مسؤول، وإنما بمحض إرادته أتى. بعد أن وصل إلى مكسيكو ذهب مباشرةً إلى قصر موكتيثوما وقال له :

"مولاي الملك سامحني على اجترائي. أنا رجلٌ من ميكتلانكواوتلا، وصلت إلى شاطئ البحر الكبير، ورأيت في وسط البحر جبلاً أو تلاً كبيراً يسير على سطح الماء، كان يسير من جهةٍ إلى أخرى ولا يصل إلى الشاطئ، وهذا لم نر مثله قط من قبل، وبما أننا حراسٌ لشواطئ البحر، فإننا حريصون على حمايتها".

قال موكتيثوما: عساه خير، خذ قسطاً من الراحة. و هذا الرجل الذي أتى بالخبر لم يكن لديه أذنان، فقد كان أصْلَمَ (مقطوع الأذنين)، ولم يكن لديه أصابع في قدميه، فقد كانت مقطوعةً أيضاً.

قال موكتيثوما لبيتلاكالكاتل، خذ هذا وضعه في السجن الخشبي، وراقبه.

بعث في طلب كاهنٍ وقال له: "اذهب إلى كويتلاكتلان، واسأل عمدة البلدة إن كان صحيحاً أنه يسير في البحر الكبير لا أعرف ماذا ولا ما هو، فليذهب ليرى ماذا يوجد في بحر السماء، وليكن هذا على وجه السرعة، وليأخذ برفقته كويتلالبيتوك".

بعد أن وصلوا إلى كويتلاكتلان قصّوا سفارة موكتيثوما، وكان المسؤول المسمى بينوتل مهتماً جداً. أجاب: سيدي استرح ليذهب لاحقاً كشافةٌ لكي يستطلعوا شاطئ البحر ليروا ما الأمر. ذهبوا للتحري عن الموضوع، وعادوا مسرعين لإيصال الخبر إلى المسؤول عن المنطقة، قالوا له: إنَّ الأمر صحيحٌ، أنه يسير ما يشبه برجين أو تلين صغيرين على ماء البحر. قال المبعوث للمسؤول: سيدي أريد أن أذهب شخصياً لرؤيتهم وكيف هم، لكي أؤكد الأمر كشاهد عيان، وبهذا أغدو مطمئناً، وأقدم الرواية وفق ما سأعاينه.

وهكذا ذهب لاحقاً مع آخرين هم مساعدو المسؤول، وبعد أن وصلوا رأوا ما يسير قرب شاطئ البحر، شاهدوا سبعة أو ثمانية أشخاصٍ خارجين في قاربٍ ويصطادون بصنارات. المبعوثان صعدا لشجرةٍ يدعونها "الشجرة البيضاء"، وهي كثيفةٌ جداً، ومن هناك راحا يراقبونهم كيف يصطادون الأسماك. وكيف أنهم بعد أن انتهوا من الصيد، عادوا مرةً أخرى إلى السفينة الكبيرة بزورقهم أو قاربهم.

قال أحدهما للآخر: هيّا بنا. نزلا من على الشجرة وعادا إلى قرية كويتلاكتلان ، وفي الحال وَدْعا المسؤول عن تلك الناحية. عادا على وجه السرعة إلى مدينة مكسيكو - تينوشتيتلان العظيمة، ليؤكدا ما ذهبا لرؤيته.

لما وصل المبعوثان ومرافقوهم إلى مكسيكو ذهبوا مباشرةً إلى قصر موكتيثوما حيث خاطبوه بالتبجيل والتواضع اللازمين. قالوا له: سيدنا الملك إنه صحيح قد جاء أناسٌ لا نعرفهم، وقد وصلوا إلى شاطئ البحر الكبير، وكانوا يصطادون بقصباتٍ وبشباكٍ يلقونها. إلى وقتٍ متأخرٍ مكثوا يصطادون، ومن ثم دخلوا في قاربٍ صغيرٍ، ووصلوا حتى البرجين العملاقين، وصعدوا إلى داخلهما، والبشريون عددهم خمسة عشر شخصاً تقريباً، ويرتدون ثياباً مثل أكياسٍ ملونةٍ، بعضها زرقاء، وأخرى رمادية وخضراء، وغيرهما لونه بنيٌ قذر وهي قبيحةٌ جداً، وأخرى قرمزية اللون، وعلى رؤوسهم يضعون أقمشةً ملونةً، وهي قبعاتٌ، بعضها كبيرةٌ جداً ومستديرةُ الشكل مثل كومةٍ صغيرةٍ، هي ربما للحماية من الشمس (قبعات للتظليل)، وبشرتهم بيضاء جداً أكثر من بشرتنا، أضف إلى ذلك أن أغلبهم لديه لحيةٌ طويلةٌ، وشعرهم يتدلى إلى أسفل آذانهم. بقي موكتيثوما مطأطئ الرأس، ولم يتكلم بشيء.

تحضيرات أمر بها موكتيثوما

بعد برهةٍ طويلةٍ تحدث موكتيثوما وقال: أنتم وجهاء بيتي وقصري، لا يمكنني أن أثق أو أصدق أحداً أكثر منكم، لأنكم تعاملونني بالصدق كل يوم: اذهبوا الآن أنتم والوزير الملكي وائتوني بالذي هو مسجونٌ في الحبس، الذي أتى كمخبرٍ من الساحل: ذهبوا في طلبه إلى السجن حيث

كان مودعاً، فتحوا الأبواب، لكن لم يجدوه حيث وضعوه، بسبب هذا دُهشوا وفزعوا.

ذهبوا ليبلغوا موكتيثوما عن هذا الأمر، الذي بدوره غدا مرعوباً ومندهشاً، و قال: بالنهاية هذا شيءٌ طبيعي، فتقريباً كلهم سحرةٌ، لكن انظروا سآمركم بأمرٍ بالغ الأهمية، بشرط أنه إذا ما كشفتم شيئاً مما أقوله لكم، فإنني سأدفنكم تحت عرشي هذا، وستموت نساؤكم وأبناؤكم، وسوف يتم تجريدكم من كل أملاككم، وتُهدم بيوتكم حتى أساساتها العميقة وحتى ينبع الماء منها، وأيضاً سيُقتل أقرباؤكم وأصهاركم، ائتوني بشكلٍ سريٍّ بصائغين من أمهر الصاغة، ومذوقي الأحجار الكريمة من أفضل من ينحت الزمرّد.

ذهبوا ثم عادوا وقالوا له: مولاي هاهنا الصنّاع الذين أمرت باستدعائهم. قال موكتيثوما: أدخلوهم إلى هنا.

دخلوا فقال لهم: تعالوا إلى هنا يا آبائي، يجب أن تعلموا أنني استدعيتكم لتصنعوا لي عملاً، وإياكم أن تكشفوه لولدٍ أو أمٍّ؛ لأن عقوبته هي من أقسى العقوبات، ألا وهي هدمُ البيوت إلى أساساتها، وفقدان الممتلكات وموتكم، وموت نسائكم وأبنائكم وأقاربكم، لأنه إذا كشفتم هذا الأمر فإن الجميع سوف يُقتلون: كل واحدٍ منكم سيصنع عملين، وسوف يجري العمل تحت أنظاري هنا سراً في هذا القصر حيث نحن الآن: سوف تصنعون لي سلسلةً ذهبيةً بعرض أربعة أصابع كلّ حلقة، ودقيقةً جداً، وسوف تَحمل هذه القطع والميداليات في وسطها قطع زمرُّدٍ بديعةٍ من كلتا الجهتين، على شكل أقراط، اثنان اثنان، ومن ثم عليكم صنع

معاصم من الذهب وسلاسلها من ذهبٍ تتدلّى منها، وهذا عليكم إنجازه على وجه السرعة.

أما الحرفيون الآخرون فقد أمرهم بصنع مروحتين كبيرتين من الرِّيش الراقي، وفي الوسط يجب وضعُ قمرٍ من ذهب، ومن الجهة الأخرى يجب وضعُ شمسٍ مشرقةٍ من الذهب، وينبغي أن تلمع من بعيد، وأمر بصنع معصمتين من ذهب (توضعان على الذراعين)، ويُثبّتُ فيهما ريشٌ ثمين. وأما صانعو الأحجار فقد كلف كل واحدٍ منهم صنعَ معصمتين لكلتا اليدين، وأيضاً للقدمين، كلّها من الذهب، وفي وسطها يُثَبَّتُ زمرد ثمين.

وأمر قهرمان القصر بيتلاكالكاتل ، بأن يُحضر بشكلٍ سريٍّ الكثير من الذهب كان مخزوناً على شكل قضبان، والكثيرَ من الريش الثمين الناعم، المأخوذ من أرقى الطيور الحمراء والصفراء الذهبية، وأيضاً الكثير من الزمرد، وأن يحضر أحجاراً كريمةً أخرى عالية القيمة.

وكل هذا أعطوه للصناع، وفي غضون أيامٍ قليلةٍ تم الانتهاء من كل العمل. وذات صباحٍ بعد أن استيقظ موكتيثوما، أُرسل أحد الموظفين كي يرجو الملك بأن يتكرم بالمجيء إلى ركن الصناع. لما دخل وبعد أن أدوا له كل التعظيم قالوا له: مولانا إن العمل قد تم إنجازه على التمام: انظر إليه هاهو هنا، ياسيدي. وبدا لموكتيثوما رائعاً ما تم القيام به. قال لهم إنهم حقاً قد أتقنوا ما طلبه منهم، والمصنوعات جاءت على ذوقه، وقد نالت سروره ورضاه.

استدعى بيتلاكالكاتل مدير قصره وقال له: لكل واحدٍ من أجدادي هؤلاء أعطه حملاً من الأقمشة من ذات العشر أذرع والثماني أذرع، والأربع أذرع، وأقمشةً فاخرةً وثياباً داخليةً وقمصاناً وتنانير لجداتي، وأضف إليه ذرةً وفليفلةً و بذر قرعٍ وقطناً وفاصولياءَ، لكل واحدٍ أيضاً. وبهذا ذهب الجميع يملؤهم السرور ومغتبطين جداً إلى بيوتهم.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث

ذهاب الرسل وإيابهم

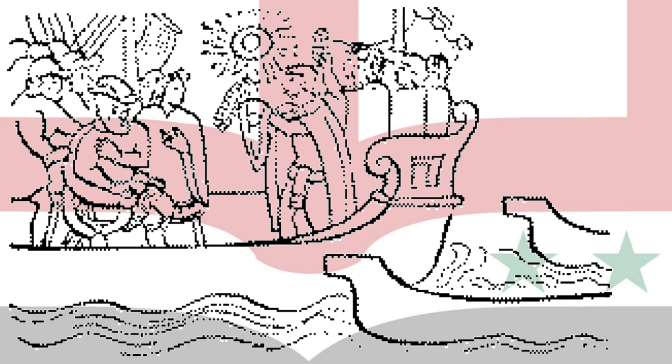

تحكي نصوصُ السكّان الأصليين، وعلى نحوٍ رئيس رواة ساهاغون، كثيراً من جيئات وذهاب رسل موكتيثوما باتجاه شواطئ الخليج، حيث ظهر الغرباء. نعرض بدايةً بعض النصوص المأخوذة من "مخطوط فلورينتينو" تتعلق بالتعليمات التي أعطاها موكتيثوما لرسله. يظهر في النصوص المذكورة بوضوحٍ الإسقاط الذي قام به شعب الناهوا لأفكارهم القديمة من أجل تفسير وصول الإسبان: ظنوا أن الواصل لتوه هو كيتزالكواتل: "أميرنا" (الذي سافر يوماً باتجاه الشرق ولم يعد إلى ذلك الحين).

على التوالي يورد المكسيكيون الطريقة التي وصل بها الرسل حتى شاطئ البحر، حيث استقبلهم الإسبان هناك، فسُلمت إليهم الهدايا التي

أرسلها موكتيثوما. يثير الاهتمام الوصف الذي يوردونه عن الهدايا المقدمة إلى كورتيس، والطريقة التي حاول بها هذا تخويفهم بالرمي بالبندقية أمام نواظرهم.

الجزء الثالث من هذا الفصل يتناول عودة رسل موكتيثوما إلى مكسيكو - تينوشتيتلان والتقارير التي يقدمونها له، عن ماهية الإسبان ومدافعهم والحيوانات التي يمتطونها، وهي نوع من "الوعول" الضّخمة، لكنها دون قرون (الخيول)، وكيف هي كلابهم... إلخ.

موكتيثوما يُلقنُ رسله

بعد ذلك أعطى موكتيثوما أوامر لمسؤوليه جميعاً. قال لهم:

- أصدروا أمراً: بأن تكون هناك مراقبةٌ شاملةٌ في كل الأماكن من ضفة الماء، في ناوتلا وتوزلاتن وميكتلانكواوتلا من حيث يمكن أن يأتي الغرباء. في الحال ذهب الضباط. أعطوا أوامر بأن تتم المراقبة. من جانبه اجتمع موكتيثوما بأمرائه كافة:

أطلعهم على الموضوع وأراهم الأطواق التي أمر بصنعها.

قال لهم:

- يروق لنا كثيراً الفيروز الأزرق ومشغولاته. سيتم حفظها جيداً. سيحفظها مسؤولو الخزينة بكل حرص. إذا ما سمحوا بإضاعة واحدةٍ منها، فسوف تكون لنا بيوتهم وأولادهم ومن هم في أحضان أمهاتهم.

ودار العام، الموافق لـ: ١٣ – أرنب. وعندما شارف على نهايته، عندما أوشك أنْ ينتهيَ العام ١٣- أرنب، إذ ذاك خرجوا إلى هنا، شوهدوا مجدداً.

على الأثر أتوا ليخبروا موكتيثوما بالأمر. ولدى معرفته أرسل أيضاً على وجه السرعة مبعوثين. كان كما لو أنه اعتقد أن الواصل لتوه هو كيتزالكواتل، أميرنا (الذي كان قد سافر يوماً باتجاه الشرق في البحر الكبير، ولم يعد إلى حينه).

هذا ما وقر في قلبه: أتى وحيداً، خرج إلى هنا: سيأتي للتعرف على مكان عرشه ومملكته. كما لو أنه لأجل هذا قد غادر مباشرةً، في الأوان الذي غادر فيه.

أرسل موكتيثوما خمسة مسؤولين لالتقائه، ولتقديم الهدايا له. وأرسل برفقتهم كاهناً يرشدهم، وهو المشرف على معبد يوهواليشان.

في المقام الثاني صاحب تيبوزتلان، والثالث صاحب تيزاتلان، والرابع هو هويويتلان، والخامس صاحب ميكتلان الكبير.

قال لهم:

- تعالوا إلى هنا أيها السّادة النمور، تعالوا إلى هنا!

يقال إنه قد عاد مجدداً إلى البر سيدُنا.

اذهبوا للقائه، اذهبوا للاستماع إليه، أصغوا جيداً لما سيقوله لكم. عليكم أن تصيخوا السمع جيداً.

الكرم و الاحتفاء بمن وصلوا لتوهم

لديكم هنا ما ستقدمونه لسيدنا:

هذا هو كنز كيتزالكواتل:

قناعٌ على شكل أفعى، مزينٌ بالفيروز.

مشبكٌ للصدر مصنوعٌ من ريش الكيتزال.

طوقٌ عريض دقيق الحبك: في وسطه قرصٌ ذهبيّ.

وترسٌ مشبوكٌ من الذهب، ومشبوكٌ بخرزات اللؤلؤ: عليه ريش الكيتزال في حافته و زينةٌ نافرةٌ من الريش.

وأيضاً مرآةٌ من تلك التي يضعها الراقصون على مؤخراتهم، مزركشةٌ بريش الكيتزال. هذه المرآة تبدو وكأنها موزاييك من الفيروز، مزينةٌ بالفيروز، مزروعةٌ بالفيروز.

وسوارُ معصمٍ من الحجارة الكريمة الخضراء المتنوعة، وأجراسٌ صغيرةٌ من الذهب.

وأيضاً قوس سهامٍ محاطٌ بالفيروز: كله مملوء بالفيروز. كما لو أن فيه رؤوس أفاعٍ حقيقية، حقاً فيه رؤوسُ أفاعٍ.

وعدة صنادل من حجر الصوان.

في المقام الثاني أعطاهم زينة تيزكاتليبوكا:

خوذةٌ مخروطية الشكل، صفراءُ من الذهب، مليئةٌ بالنجوم، مزينةٌ أقراطها بأجراسٍ ذهبية.

وطوقٌ من الصدف الراقي: طوقٌ يغطي الصدر، مزينٌ بالقواقع التي تتدلى من حوافه.

وسترةٌ ملونةٌ كلها، ولها شريطٌ في عيونها: على الشريط ثُبِّتَ ريشٌ ناعمٌ يبدو كالرغوة.

رداءٌ من الخيوط المربوطة أزرق اللون، هذا يسمى "الجرس الرنان". يُرفع إلى الأذنين وهنا يربط. أيضاً مثبتٌ عليه مرآة في القفا.

وأيضا مجموعةٌ من الأجراس الذهبية التي تربط إلى الكاحل.

ومجموعةٌ من الصنادل ذات اللون الأبيض.

في المقام الثالث، زينة سيد تلالوكان:

شعرٌ مستعارٌ من ريش الكيتزال وطائر البلشون: كله مصنوعٌ من ريش الكيتزال، مملوء بريش الكيتزال، كما لو أنه يخضرّ، كما لو أنه يشعٌّ اخضراراً، وفوقه مشبكٌ مصنوعٌ من الذهب وصدف اللؤلؤ.

بعض الأقراط على شكل أفعى، مصنوعةٌ من الفيروز.

سترته مرشوشةٌ بالفيروز.

طوقه: طوقٌ من الفيروز، منسوجٌ بشكلٍ دقيق، أيضاً فيه قرصٌ ذهبي.

أيضاً مرآةٌ للجزء الخلفي، على وصف تلك، و لها أجراسٌ صغيرةٌ.

واللحاف الذي يتغطى به، حواشيه خواتمُ حمراء، وأجراسٌ للقدم، مصنوعةٌ من الذهب.

وعكازه على شكلٍ أفعوانيّ، وبه موزاييك من حجر الفيروز.

في المقام الرابع، أيضا زينة كيتزالكواتل:

تعويذةٌ من جلد النمر، وفيها ريشُ ببغاء: عليها حجرةٌ خضراءُ عظيمة: بهذا يُزيَّنُ الرأس. وأقراطٌ من الفيروز، على شكل دوائر، ومنها يتدلى هلالٌ من اللؤلؤ والذهب. وطوقٌ من الفيروز المنسوجُ بعضه إلى بعضٍ: أيضاً في الوسط يقبع قرصٌ من الذهب. واللحاف الذي يتغطى به، له زركشاتٌ حمراء. للقدم أيضاً أجراسٌ ذهبية.

والترس من ذهب، مثقوبٌ في وسطه، وعليه ريش كيتزال مثبتٌ على حوافه، وأيضاً له ذؤابةٌ من ريش الكيتزال. والصولجان المعوج: منحنٍ في الأعلى، وفيه حجارةٌ كريمةٌ بيضاء، مغطى كله بها. وصندله من الطف البركاني.

توجد هنا جميع أصناف الشارات التي تسمى "شاراتٍ إلهية". تُوضع في حوزة السفراء.

وأيضاً أشياء أخرى كثيرةٌ حملوها كهدايا استقبال:

خوذةٌ صدفية الشكل مصنوعةٌ من الذهب.

تعويذةٌ من ذهب.

بعد ذلك رُتِّبَتْ في سلالٍ كبيرةٍ، رُبطت من أجل التحميل.

وفيما يخصُّ الخمسة المذكورين، فإن موكتيثوما أعطاهم الأوامر، قال لهم:

- اذهبوا ولا تتأخروا. رحّبوا بسيدنا الإله. قولوا له:

- لقد أرسَلَنا إلى هنا نائبكم موكتيثوما. هاهنا ما يقدمه لكم كهديةٍ على وصولكم بسلامٍ إلى مقركم في مكسيكو".

يصل الرسل إلى حيث الإسبان

ولّما وصلوا إلى شاطئ البحر نقلوهم وفي قوارب حملوهم إلى شيكالانكو.

مرةً أخرى من هناك أخذوهم بقوارب، حملهم البحارون: جميع الأغراض وضعوها في قوارب حيث رتبوها.

ولما استقلوا الزوارق، مضوا عبر النهر، وصلوا إلى سفن أولئك (أي الإسبان) والتصقوا بها.

سألهم[1] الإسبان:

- من أنتم؟ من أين أتيتم؟

- أتينا من مكسيكو.

مرةً أخرى قالوا لهم:

- ربما أنتم قادمون من هناك وربما لا، أو لربما تختلقونه، ربما أنتم تخدعوننا ليس إلاّ.

لكن قلبهم اقتنع، اطمئن فؤادهم و صدقوهم. بعد ذلك وضعوا خطافاً على مقدم السفينة، ورفعوهم بالشد، ومن ثم نصبوا سلّماً.

---

(١) يجدر ذكره أنّ رسل موكتيثوما والإسبان استطاعوا القيام بهذه الحوارات بدايةً بفضل أن كورتيس كان يجلب معه خيرونيمو دي أغيلار ومالينتزين. هذه الأخيرة كانت تفهم كلمات الهنود بلغة الناهواتل، وتنقلها إلى أغيلار بلغة المايا، وهذا كان يترجمها إلى القشتالية كي يستطيع الفاتحون فهمها.

وهكذا صعدوا إلى السفينة، ومعهم في قواربهم الأغراض. ومن ثم واحداً واحداً أدوا مراسم تقبيل الأرض أمام القائد، (أي إنهم أدوا تبجيلاً وتعظيماً).

على الفور يلقون كلمةً على مسامعه، يقولون له:

- ليتكرم بسماعنا الإله: هذا تكريمٌ وهديةٌ من نائبكم موكتيثوما. هو يتولى مسؤولية مدينة مكسيكو. يقول: "متعبٌ ومرهقٌ صار الإله."

في الحال بدؤوا بتزيين القائد. وضعوا له بعنايةٍ قناعَ حجر الفيروز الكريم، مثبَّتاً فيه حزمة ريش الكيتزال.

ويتدلى من هذا القناع قرطان من جهةٍ وأخرى.

ووضعوا له السترة، ألبسوه إياها. ووضعوا في عنقه الطوق المنسوج: مزينٌ بحجارةٍ خضراء صغيرةٍ: في وسطه قرصٌ ذهبي.

بعد ذلك ربطوا على مؤخرته المرآة التي تتدلى إلى الخلف، وأيضاً كسوا ظهره بالرداء المسمى "ذوالأجراس".

ووضعوا له في أعلى قدميه درع الساق التي يستخدمها بعض الهنود مزينةً بحجارة الفيروز، ولها أجراسٌ صغيرةٌ من ذهب.

أيضاً وضعوا في يده الترس الذي له مشبكٌ ذهبيٌ وصدف لؤلؤٍ، و له ذؤابتان من ريش الكيتزال وأعلامٌ صغيرة من نفس الشيء.

أمام ناظريه وضعوا صندل حجر الصوان.

بالنسبة للأصناف الثلاثة الأخرى من الزينة الإلهية، فقد وضعوها أمامه فقط، رتبوها هناك.

بينما الأمر كذلك، سألهم القائد:

- هل هذه هي كل هديتكم الترحابية؟ تلك التي تصلون بها إلى الأشخاص؟

هم أجابوا: إنّه كلّ شيء: بهذا قدمنا يا سيدي.

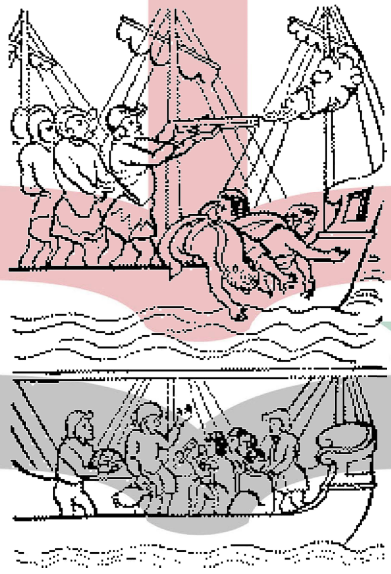

الإسبان يستقبلون رسل موكتيثوما

كورتيس يحاول أن يبث الخوف في نفوس المكسيكيين

حينئذٍ أعطى القائدُ أوامراً، ومِنْ ثَمَّ قُيِّدُوا (المكسيكيين)، وضعوا حديداً في أيديهم وفي أعناقهم. لما تم ذلك أطلقوا المدفع الكبير. وفي هذه اللحظة فقد الرسل وعيهم، أُغمي عليهم. سقطوا، تكوموا كل واحدٍ في جهته: لم يعودوا في رشدهم.

الإسبان من جانبهم رفعوهم وأنهضوهم، سقوهم خمراً، وفوراً قدموا لهم طعاماً، جعلوهم يأكلون. بهذا استعادوا أنفاسهم، واطمأنت قلوبهم.

بينما الأمر كذلك قال لهم القائد:

- اسمعوا: علمت وتناهى إلى سمعي بأن المكسيكيين أقوياء جداً، وأنهم محاربون أشداء، وأنهم صناديد. يقال إن مكسيكياً واحداً يمكنه أن يهزم، وأن يقهر، وأن يغلب، وأن يتغلب على عشرة وربما عشرين محارباً.

والآن قلبي يريد أن يقتنع، سأرى أنا، سأجرب لأي درجةٍ أنتم أقوياء وفحولٌ.

أعطاهم في الحال تروساً جلديةً وسيوفاً ورماحاً. وأضاف قائلاً:

- في الغد الباكر وقت السَّحَر: سوف يجالد بعضنا بعضاً: سنعمل مبارزةً كل اثنين معاً. وسوف نتأكد ونرى من سيسقط أرضاً!

هم أجابوا القائد قائلين:

- ليسمع سيدي: ربما هذا الموضوع لم يأمرنا به موكتيثوما، نائبكم! فنحن بمهمةٍ حصريةٍ قدمنا إلى هنا، لكي نقدم الراحة والطمأنينة أتينا، لكي يسلم بعضنا على بعض. ليس من صلاحيتنا ما يريده السيد. وإذا ما عملنا هذا الشيء فقد يغضب بسببه موكتيثوما كثيراً، ومن ثم يقضي علينا بجريرة ذلك.

قال القائد في الحال:

- كلا، يجب القيام بذلك. أريد أن أرى: فقد سرت شهرةٌ في قشتالة، وصار يقال إنكم أقوياء جداً، إنكم متمرسون بالحرب. عليكم أن تأكلواً باكراً جداً: أيضا أنا سآكل. فلنستعد!

بعد ذلك أطلقهم، فقاموا بإنزالهم إلى قاربهم (أي المكسيكيين). وما إن نزلوا إلى زورقهم حتى بدؤوا في التجديف بقوة. يجدفون بحماسٍ ملتهب. بعضهم حتى بأيديهم يجدفون، قلوبهم تنبض بسرعة. بكلماتٍ سريعةٍ يقول بعضهم لبعضٍ:

- بكل قواكم يا فتياني! جدفوا بعزمٍ. لئلا يصيبنا مكروه ها هنا! لئلا يحدث لنا شيء!...

على عجلٍ وصلوا عبر البحر إلى المكان المسمى شيكالانكو.

بصعوبةٍ التقطوا أنفاسهم هناك. بعدها بهمةٍ كبيرةٍ تابعوا طريقهم. وصلوا إلى تيكبانتلاياكاك. من هناك سلكوا طريقاً، بدؤوا المسير، ووصلوا مسرعين إلى كويتلاكتلان. مثلما حصل في رحلة الذهاب، التقطوا أنفاسهم هناك.

وصاحب تلك الناحية قال لهم:

- ولو ليومٍ استريحوا هنا! خذوا نفساً على الأقل! لكنهم قالوا له:

- لا! إننا على عجلةٍ من أمرنا: سنطلع سيدنا الملك موكتيثوما على الموقف. سنخبره بما رأيناه. شيءٌ مدهشٌ حقاً. لم يُر شيءٌ مثل هذا من قبل! أم إنك سمعت به قبل الآن؟

عودة الرسل

بعد ذلك بسرعةٍ ذهبوا وإلى مكسيكو وصلوا. دخلوها ليلاً في حلكة الظلام.

في غضون ذلك، ما عاد موكتيثوما يشتهي نوماً، ما عاد يشتهي طعاماً، ما عاد يكلم أحداً. وإذا ما فعل (أحدهم) شيئاً (خارج المألوف) لا يكترث له. تقريباً في كل لحظةٍ يزفر. صار فاقد المعنويات، وخائر القوى.

لا شيء مما يعطي بهجةً، لا شيء مما يمنحُ لذةً، لا شيء ممتعاً.. كل ذلك لم يعد يهمه.

وعلى ذلك كله يعلق قائلاً:

- "ما الذي سيحلّ بنا؟ مَن منا حقاً سيبقى على قدميه؟

آه لم أعد كما كنت!... فقلبي خائرٌ لدرجة الموت! كما لو أنه مغمورٌ بالفلفل الحار، ينقبض من الغم وبناره يكتوي!

إلى أين إذن يا سيدنا؟"

عند ذلك أعطى أوامر لمن مهمتهم المراقبة، الذين يحفظون أركان مُلكه.

قال لهم:

- حتى وإن كنت نائماً أخبروني أنه ها قد وصل الذين أرسلتهم إلى البحر.

لكن عندما أتوا وقالوا له ذلك، أجابهم في الحال:

- هنا لا أريد سماعهم. سأستمع إليهم هناك في "دار الأفعى". إلى هناك فليذهبوا.

وأصدر أوامره قائلاً: فليتم تجهيز أسيرين في الحال!...

وبعدها ذهب الرسل إلى "دار الأفعى". أيضاً هو، موكتيثوما. إذ ذاك أمام عينيه تم تقديم القربانين. فتحوا صدور الأسرى: ومن دمهم رشوا على الرسل.

سبب القيام بذلك هو أنهم ذهبوا في طريقٍ صعبٍ، ولأنهم رأوا "الآلهة" ولأنهم حدقوا في وجوههم ورؤوسهم، وتحدثوا إليهم! ...

ما رآه الرسل

لما تم ذلك، راحوا يخبرون موكتيثوما. رووا له كيف كانت دهشتهم وما رأوه، وكيف هو طعام أولئك القوم. ولمَّا انتهى من سماع بلاغ الرسل، فزع كثيراً، واندهش كثيراً. وما أدهشه أكثر كان طعامهم.

أيضاً أصيب بكثيرٍ من الهلع لما سمع كيف يُغمى على الشخص، وكيف يصم أذنيه (دوي الانفجار). وعندما يسقط المقذوف، الذي هو مثل كرةٍ حجريةٍ تخرج من أحشائه: يمطر ناراً ويقدح شرراً، والدخان الذي يخرج منه، رائحته كريهةٌ جداً، مثل الطين المتعفن، يتغلغل حتى الدماغ مسبباً إزعاجاً. وإذا ما أصاب تلًّا فكأنه يخسفه ويصدعه، وإذا ما أصاب شجرةً فإنه يمزقها إرباً، مثل ماردٍ خارقٍ، كما لو أن أحداً ما قد نفخه من الداخل.

عتادهم الحربي كله من حديد: حديدٌ يلبسون، حديدٌ يضعون مثل قبعاتٍ على رؤوسهم، من حديدٍ سيوفهم، من حديدٍ قسيُّهم، من حديدٍ تروسهم، من حديدٍ رماحهم. تحملهم على ظهورها "وعولهم" (خيولهم).

وهي عاليةٌ إلى مستوى السقوف. مغطاةٌ أجسامهم من كل جانب، فقط تظهر وجوههم وهي بيضاء كما لو كانت من الكلس. شعر رؤوسهم أصفر، وأحياناً أسود. طويلةٌ لحاهم، أيضاً هي صفراء وشواربهم صفراء أيضاً. شعرهم متموجٌ وناعمٌ، أجعدُ قليلاً.

فيما يخص غذاءهم: هي أطعمةٌ بشرية: كبيرة الحجم، بيضاء، ليست ثقيلةً، كما لو أنها من قشّ. تشبه خشب ساق الذرة، ومثل لب ساق الذرة طعمها. حلوةٌ بعض الشيء، معسلةٌ قليلاً: تؤكل كالعسل، إنها طعامٌ حلو.

وأما كلابهم فضخمةٌ، آذانها متموجةٌ ومسطحةٌ، ولها ألسنةٌ كبيرة تتدلى، عيونها تصبّ ناراً، تقدح شرراً: عيونها صفراء فاقعةُ الصُّفرة. بطونها مجوفةٌ، طويلةٌ ضامرةٌ وممطوطة. هي قويةٌ جداً ومكتنزة، ليست هادئة، بل تسعى متبخترةً وألسنتها تتدلى. مرقطةٌ بالألوان كالنمور، وفيها الكثير من النقاط الملونة. عندما سمع موكتيثوما ذلك كله امتلأ خوفاً وكما لو أنّ قلبه قد تماوت وانقبض، أمسى مكتئباً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع

الحالة النفسية للملك موكتيثوما

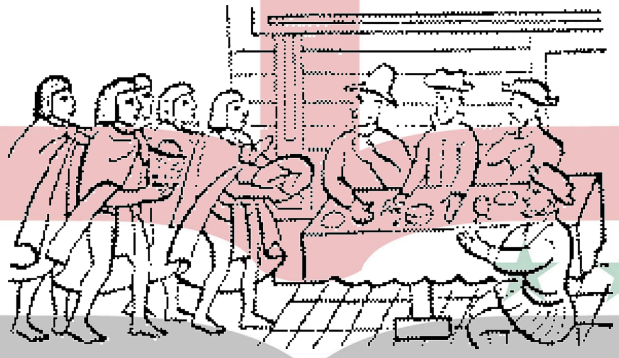

لما علم موكتيثوما من تقارير مبعوثيه عن وصول هؤلاء الغرباء الذين يجلبون معهم حيواناتٍ وأشياء غريبةً راحت الحالة النفسية للملك تضطرب أكثر فأكثر.

شهود ساهاغون يشيرون كيف أرسل في طلب كل صنفٍ من السحرة والمشعوذين للتسبب بأذىً ما للإسبان، ومنعهم من الاقتراب من مكسيكو-تينوشتيتلان.

في خضم شكوكه وظاناً أنهم ربما آلهةٌ فإنّ موكتيثوما أرسل أيضاً أسرى لكي يتم تقديمهم كقرابين في حضرتهم. الرواة يقدمون لنا وصفاً حياً عن ردة فعل الإسبان لدى علمهم بذلك.

يشير النص أيضاً إلى سبب تسمية الفاتحين بـ "آلهة". قبل أن يتشكل في عقلهم تصورٌ قادرٌ على تفسير حضور الغرباء، فإنهم يُسقطون عليهم الأسطورة القديمة عن عودة الأمير كيتزالكواتل. حسبوا أنّ الإسبان هم الآلهة القادمون من السماء، الآلهة التي عادت.

فشل السّحرة في محاولتهم سَحْر الإسبان وجعلهم يقرّرون أنّه من الأفضلِ لهم الابتعاد. الآن المبعوثون يبلغون كل هذا لموكتيثوما. في مكسيكو - تينوشتيتلان، موكتيثوما والشعب عموماً على حدٍّ سواء يعيشون أيامَ رعبٍ ثقيلة. "الآلهة" أو بعض الأجانب الغرباء، القادمون من وراء البحر الواسع، يهددون بالاقتراب من عاصمة المكسيك العظيمة. النص الذي كتبه السكان الأصليون يقدم لنا وصفاً نفسيّاً لشخصِ موكتيثوما المرهق بالشكوك و التردد.

في النهاية نرى السيد العظيم (أو الملك) قانعاً ورابط الجأش منتظراً رؤية ما سيجري.

موكتيثوما يبعث سحرةً و مشعوذين

في هذا الوقت بعينه أرسل موتيوكوثوما بعثةً. أرسل كلّ من استطاع إرساله من رجالٍ غير بشريين، عرافين وسحرة. أيضاً أرسل محاربين وصناديد و قادةً.

هؤلاء ينبغي أن يأخذوا معهم كل ما هو ضروري من المأكولات: دجاج الأرض، بيض دجاج، وعجةً بيضاء. وأيضاً كلّ ما يمكن أن يطلبه أولئك (الإسبان)، أو ما قد يُدخلُ السرور والبهجة في نفوسهم. وأوصاهم أن يتمعنوا فيهم ويتفحصوهم جيداً.

أرسل أسرى كي يتم تقديمهم كأضاحٍ لهم: من يدري فربما يرغبون في شرب دمائهم. و هذا ما فعله المبعوثون.

لكن لَمَّا رأى (الإسبان) تلك (الأضاحي البشرية) شعروا بالقرف الشديد، راحوا يبصقون يمنةً ويسرةً، صاروا يعركون جفونهم، يغمضون أعينهم، يهزون رؤوسهم كتعبيرٍ عن الرفض لما رأوه. والطعام الذي لوثته الدماء راحوا يرمونه بقرف، الطعام الذي وصلته الدماء صارت له رائحةٌ قويةٌ، ويسبب غثياناً، كما لو أنها دماءٌ عفنة.

والسبب في أن موكتيثوما تصرف هكذا هو اعتقاده أنهم آلهة، معتبراً إياهم آلهةً يُعبدون. لهذا تمت تسميتهم واعتبارهم "آلهة قادمين من السماء". وبالنسبة للزنوج فقد تم نعتهم ب: "إلهيين قذرين."

إلى وقتئذٍ أكلوا العجة البيضاء، والبيض، والدجاج، وكل صنفٍ من الفواكه، وهي: فاكهة القشطة والجوافة وتين الصبّار. أيضاً قدموا طعاماً ل"وعولهم" (خيولهم)، من براعم الأشجار والعشب المقصوص.

وحتى يُقال إنّه (أرسلهم) كي يروا أي صنفٍ من البشر هم أولئك: ليروا هل بالإمكان تقييدهم بسحر أو إصابتهم بمسٍّ ما. فربما يمكن أن ينفخوا عليهم هواءً ما، أو أن يُحدثوا فيهم جروحاً، أو أن يتسببوا لهم بأيّة كارثةٍ من هذا القبيل. أو ربما أيضاً يمكن أن يرددوا عليهم كلمةً سحريةً ما، و بها يمرضونهم، أو أن يموتوا منها، أو ربما يعودون من حيث أتوا. من جانبهم هم قاموا بعملهم ومهتمهم على الإسبان، لكن لم يقدروا على فعل شيءٍ إطلاقاً، لم يتمكنوا من إحداث شيءٍ البتة.

إبلاغ موكتيثوما عن فشل السحرة

بالنتيجة في الحال عادوا مسرعين، أعلموا موكتيثوما عن صفتهم وكم هم أقوياء:

- لسنا أنداداً لهم، إننا هباءٌ أمامهم!

لذلك فإنّ موكتيثوما أعطى أوامرَ صارمةً: أسرّ بغضب وأمر بشكلٍ واخز، وتحت التهديد بالموت أخذ عهداً على كبار المسؤولين والقادة والضباط بأن يحرصوا على تلبية كل ما يمكن أن يحتاج إليه أولئك. عندما خرج (الإسبان) من سفنهم وأخيراً سيبدؤون المسير إلى هنا وصاروا يغذّون المسير وسلكوا الطريق، تم الاهتمام بهم بكل عنايةٍ وتشريفٍ وتكريم: قاموا بمساعدتهم، أتوا يرافقونهم على الطريق: قدموا لهم الكثير.

اغتمام موكتيثوما و الشعب عموماً

حسناً الآن موكتيثوما راح يمحّص الأمور، مشغول البال، ممتلئاً رعباً: يفكر في ما سيحدث للمدينة، وكلّ الناس خائفون جداً. هناك هلعٌ عظيم، هناك ذعر. يتناقشون في الأمر ويتحدثون عما هو حاصل.

هناك لقاءات، تحصل نقاشات، تتشكل تجمعات، هناك بكاءٌ وعويل، يبكي بعضهم على بعضٍ. يمضون ناكسي الرؤوس، يمشون مُطْرقين. يُحيي بعضهم بعضاً باكين، يبكي بعضهم إلى بعض عند إلقاء التحية. هناك محاولةٌ لتشجيع الناس، يُشجع بعضهم بعضاً. يلمسون الآخرين بحنان، الأطفال يُلمسون بحنان.

الآباء يقولون:

- آخ يا أبنائي! ما الذي سيحصل لكم؟ آه عليكم سوف يجري ما سيجري...!

والأمهات يقلن:

يا أولادي! كيف ستتحملون ما سيجري لكم؟

أيضاً قيل لموكتيثوما، ووضع في الصورة، و أُعلم، أُخبر به وأُسمع الأمر، و ذلك كي يستقر في فؤاده: امرأةٌ منا نحن الذين هنا، ترافقهم، هي تتحدث لغة الناهوا. اسمها مالينتزين، بلدها تيتيكباك، هناك في الساحل أخذوها منذ البداية...

في هذا الوقت أيضاً كان (الإسبان) يسألون بإلحاحٍ أسئلةً تتعلق بموكتيثوما: كيف هو، هل هو شابٌّ أم رجلٌ ناضجٌ أم عجوز. هل لا يزال قويّ البأس أم صار هرماً، هل هو طاعنٌ في السنّ وهل رأسه أشيبُ.

أجابوا ال "آلهة" أي الإسبان:

- هو رجلٌ ناضج، ليس بالسمين بل هو نحيفٌ، ناحلٌ بعض الشيء، إنه رفيعٌ ودقيق الجسم.

موكتيثوما يفكر بالهرب

وعندما سمع موكتيثوما أنه يُستقصى عنه كثيراً، أنه يُتحرى عن شخصه، أن "الآلهة" راغبون كثيراً برؤية وجهه، فكأنما انقبض قلبه وامتلأ غماً. استولت عليه فكرة الهرب، تولدت لديه رغبةٌ بالهرب، صار راغباً

بالتواري هرباً، أصبح مستعداً للفرار. صار ينوي الاختباء، وهو متشوقٌ للتخفّي. أراد أن يختبئ منهم، أراد التملص من "الآلهة" **(أي الإسبان)**.

وفكّر وصارت لديه الفكرة، خطّط وأصبحت لديه الخطة، شرع وصار لديه المشروع: يتأمل ويفكر باللجوء إلى بطن مغارةٍ ما. ولبعض أولئك الذين يطمئن قلبه لهم، وثقته بهم ثابتةٌ، أطلعهم على ذلك. هم أجابوه: "أنت تعلم مكان الموتى، "دار الشمس"، وأرض تلالوك، و"دار سينتلي". إلى هناك ينبغي الذهاب، حيث تشاء إرادتك الطيبة".

هو من جانبه لديه رغبته الخاصة: يرغب بالذهاب إلى دار سينتلي **(معبد آلهة الذرة)**.

هذا ما تمت معرفته، وهكذا شاع بين الناس. لكن هذا لم يستطعه. لم يتمكن من الاختباء، ولا من التخفي، لأن ذلك لم يعد ممكناً، ولم يعد متحمساً، فلم يعد بالإمكان فعلُ شيء.

كلام السحرة الذي شتتوا به قلبه والذي مزّقوا به فؤاده، جعلوا قلبه وكأنه يدور، جعلوه ليناً ومنهاراً. جعله ذلك متردداً وغير متأكدٍ من معرفة **(هل بإمكانه التواري)** هناك حيث ذُكر له. لم يفعل أكثر من انتظارهم. لم يفعل أكثر من التسليم بقلبه، لم يفعل أكثر من الاستسلام لقدره، استعاد أخيراً رباطة جأشه، كظم ما بداخله، واستعد لرؤية ما سيحدث.

الفصل الخامس

الإسبان يبدؤون المسير
الوصول إلى تلاكسكالا وشولولا

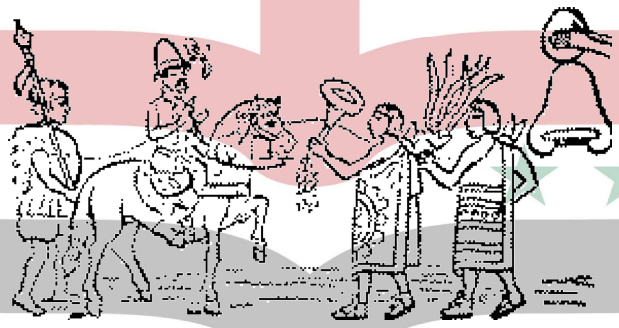

رغم جهود رسلِ موكتيثوما بهدف منع الإسبان من محاولة الاقتراب من مكسيكو- تينوشتيتلان، فإنّ جماعة كورتيس قرروا المسير. يروي لنا النصان اللذان نوردهما في هذا الفصل، الأول لرواة ساهاغون الهنود، والثاني من "تاريخ تلاكسكالا" لمؤلفه مونيوث كامارغو، وصول الإسبان إلى تلاكسكالا وشولولا.

سوف نورد المعركة الأولى التي حصلت بين الإسبان ومجموعةٍ من المحاربين من منطقة تيكواك. تروي النصوص كيف قرر أهلُ تلاكسكالا على الفور استقبال الأجانب بسلام. بعد أن وصل الإسبان بدأ أهل

تلاكسكالا حالاً في التآمر على أهل شولولا والمكسيكيين (أهل مدينة مكسيكو).

من المفيد أن نرى الرواية المزدوجة حول أسباب المذبحة التي ارتكبها الإسبان في شولولا، والتي يقدمها لنا من جهةٍ رواة ساهاغون، ومن جهةٍ أخرى مؤلف "تاريخ تلاكسكالا". حسب هذين المصدرين فإن كل السبب تأتّى من دسائس أهل تلاكسكالا "الذين كانت نفوسهم تتحرق للانتقام من أهل شولولا."

إنّ رواية تاريخ تلاكسكالا بالمقابل هي مختلفة: يُقال إن أهل شولولا قد تسببوا بدمارهم، لأنهم لم يخضعوا للإسبان وبسبب اغتيال باتلاهواتزين غدراً وهو سفير تلاكسكالا الذي حض أهل شولولا على التحالف مع الإسبان.

هذه الرواية المختلقة لأهل تلاكسكالا التي هي ربما لتبرير مشاركتهم في مذبحة شولولا لا تجد ما يدعمها لا في "تاريخ برنال دياث دل كاستيو"، ولا في "تقارير كورتيس".

الإسبان يبدؤون المسير

وأخيراً هاهم قادمون، يبدأ الإسبان المسير نحونا.

وجدوا بدايةً رجلاً من ثيمبوالا يدعى تلاكوشكالكاتل حين أتوا لرؤية أراضٍ و مدن، أيضاً هو يتحدث لغة الناهوا. أتى يرشدهم إلى الطريق، جاء يختصر عليهم الطرق، أتى يدلهم على الطريق الصحيح. كان يرشدهم، جالباً إياهم، سائراً أمامهم.

وعندما وصلوا إلى تيكواك الواقعة في أراضي تلاكسكالا حيث يعسكر الضباط الذين هم جميعاً برتبة أوتومي. خرج هؤلاء الأوتوميون للقائهم بهدير الحرب، بتروس استقبلوهم.

لكن المحاربين من أهل تيكواك فُتك بهم، فقد تغلبوا عليهم بشكلٍ ساحق. شتتوهم إلى أجزاء، فرقوهم إلى مجموعات. ضربوهم بالمدافع، حاصروهم بالسيوف، رموهم بالنبل. وليس القليل منهم، وإنما جميعهم هلكوا.

وعندما هُزم أهل تيكواك، فإنّ أهل تلاكسكالا سمعوا بذلك وعلموه: فقد أُخبروا بذلك. ومن ثم فقد ذُعروا كثيراً وشعروا بالرغبة في الموت. أصابهم خوفٌ كبير، وامتلؤوا رهبةً و ذعراً.

إذ ذاك اجتمعوا، عقدوا مجلساً. اجتمع القادة والضباط. يخبر بعضهم بعضاً بالواقعة قائلين:

- "ما العمل؟ هل سنذهب للقائهم؟ رجالٌ ومحاربون أشداء هم الأوتوميون أهل تيكواك: لكن ذلك لم يُجد نفعاً، ولم يأبهوا بهم!...". بلمحةٍ وفي طرفة عينٍ قضوا على الجنود المساكين!. إذن الآن لندخل في صفهم، فلنصادقهم، فلنصبح أصدقاء لهم (حلفاء). لأن من هم أدنى قوةً خاسرون...!

الوصول إلى تلاكسكالا

وعلى الفور يذهب سادة تلاكسكالا للقائهم. حملوا معهم طعاماً: دجاجاً برياً وبيضاً وعجةً بيضاء وعجةً فاخرة.

قالوا لهم:

- لقد أرهقتم أنفسكم يا سادتنا.

أجابوهم:

- أين هو بلدكم؟ من أين أتيتم؟

قالوا:

- نحن من تلاكسكالا. لقد أتعبتم أنفسكم، حللتم أهلاً ووطأتم سهلاً: إنها داركم تلاكسكالا. إنها بلدكم مدينة النسر، تلاكسكالا.

منذ القدم كانت تسمى تلاكسكالا: وأهلها يُدعون بـ "التلاكسكاليين". أرشدوهم، أتوا بهم، راحوا يدلونهم على الطريق. جاؤوا بهم وجعلوهم يدخلون في دارهم الملكية. أقاموا لهم الكثير من التشريفات، وقدّموا لهم كل ما يلزمهم، اتحدوا بهم حتى أهدوهم بناتهم.

بعدها سألهم الإسبان:

- أين تقع مكسيكو؟ كم تبعد؟

أجابوهم:

- لم تعد تبعد كثيراً. ربما في غضون ثلاثة أيامٍ يمكن الوصول إلى هناك، هي مكانٌ رائع. وهم شجعانٌ ومحاربون أشداء وذوو صولةٍ فاتحون. في كل مكانٍ يسيرون فاتحين.

دسائس ضد شولولا

لكن أهل تلاكسكالا منذ مدةٍ وهم في حربٍ مع شولولا، ينظرون بغضبٍ، ينظرون بسوء طويةٍ، هم مستاؤون، يغلي قلبهم حقداً على أهل شولولا.

هذا هو السبب في أنهم حرضوا (الفاتح) ضدهم لكي يقضي عليهم.

قالوا له:

- إنه شريرٌ عدونا الذي في شولولا. شديد البأس كالمكسيكي. إنه حليف المكسيكي (أي من يقطن مدينة مكسيكو).

لَمَّا سمع الإسبان ذلك، قرروا الذهاب إلى شولولا. كان يسير معهم أهل تلاكسكالا وأهل ثيمبوالا. كلهم كانوا مستنفرين للحرب.

مذبحة شولولا

لَمَّا وصلوا نادى منادٍ بأن يجتمع رجال البلدة.

حصل اجتماع في قاعة الإله.

ولَمَّا صاروا جميعاً هنالك، أُغلقت المداخل: كل مكانٍ فيه مدخل.

في الحال تنهال السيوف عليهم، هناك قتلى، هناك ضرب بالسيوف. ما من أدنى توجسٍ بالشرّ كان في قلوب أهل شولولا! لا بسيوفٍ ولا بتروسٍ تصدوا للإسبان. ببساطةٍ غيلةً وغدراً قتلوا، ببساطة كعميانٍ ماتوا، ببساطةٍ دون أن ينتبهوا فارقوا الحياة. بنيةٍ مبيتةٍ ليس إلا حمل عليهم أهل تلاكسكالا.

وبينما كان يحدث كل ذلك، كله يتم إيصاله وقوله وإسماعه لموكتيثوما.

فيما يتعلق بالمبعوثين فإنهم يغدون إلى هنا ويروحون، يلفون ويدورون من هناك إلى هنا. ليس الأمر مجرد سماع، بل يُستشعر الموضوع حقيقةً.

أما الناس البسطاء فقد تملكهم البكاء. وصاروا مشوشين. كما لو أن الأرض تتزلزل من تحتهم أو أن الأرض تدور بأعينهم. مثلما يشعر المرء بالدوار حينما يدور (بسرعةٍ) حول نفسه. كل ذلك كان مثيراً للدهشة.

وبعد حدوث مذابح شولولا، تأهبوا للمسير، ها هم يمضون باتجاه مكسيكو. يسيرون في دائرة، ذاهبون بنية الفتح. يثيرون زوبعةً من الغبار في الطرقات. رماحهم وفؤوسهم تشبه الخفافيش، لها بريقٌ ولمعان. كما يثيرون جلبةً وضوضاء. دروعهم المنسوجة وخوذهم الحديدية، تصدر ضجيجاً. بعضهم يلبس حديداً، بعضهم مزينٌ بالحديد، وهم يلمعون. لذلك كان يُنظر إليهم بخوفٍ كبير، إنهم يبثون الرعب في كلّ شيء: إنهم مخيفون جداً، بل مرعبون. وكلابهم تسير في المقدمة، إنها تسبقهم، رافعةً خطومها، مادةً أنوفها: إنها تتسابق: يسيل اللعاب من أفواهها.

رواية تلاكسكالا عن مذبحة شولولا

بهذه الطريقة من الآن فصاعداً لم يعد هنالك من همّ (عند الإسبان) إلا تأليب أقوامٍ ضدّ المكسيكيين، وهذا ما تم لهم في وقتٍ قصيرٍ لكي لا يعطوا مجالاً لهؤلاء بأن يتحالفوا و يتّحدوا مع أهل تلاكسكالا. ومن أجل منع الأمور من السير باتجاهٍ غير مناسبٍ فقد حرص كورتيس على ألا يفرّط بأصدقائه و حلفائه الجدد مستخدماً كالعادة دهاءه كقائدٍ محنكٍ سنحت له فرصة جيدةٌ كهذه.

لما اكتمل حشدهم بدؤوا بالزحف وتحريك جيوشهم (الإسبان وأهل تلاكسكالا) بانتظامٍ كبير وحصر الأعداد وتوضيب المؤن الكافية لمهمةٍ كبيرةٍ كهذه، وفيهم ضباطٌ كبار من ذوي الشهرة والمراس، مدربون على

فنون الحرب والقتال. تم تعيين ضباطٍ كثرٍ من بين الهنود ومن الذين أثبتوا إخلاصهم لكورتيس حتى نهاية فتحه.

الدخول الأول حصل من جهة شولولا حيث يحكم ويملك هناك سيدان يدعيان "تلاكوياش" و"الألشياك"، ويطلق هذان الاسمان على كل من يعقب في الحكم هناك، وهما يعنيان: "سيد ما علا من الأرض" و"سيد ما انخفض من الأرض".

دخلوا إذن في منطقة شولولا، وفي وقتٍ قصيرٍ تم تدميرها، وتسبب في ذلك أهل تلك المدينة أي تلاكسكالا. ولما تم تدمير شولولا وقتل جمعٍ غفيرٍ من أهلها، طار الخبر في كل الأرض حتى مكسيكو، تسبب بهلعٍ كبير، وأكثر لما علموا عن انضمام أهل تلاكسكالا لـ "الآلهة"، وهذا كان الاسم العام الذي أُطلق على الإسبان، في كل بقعةٍ من العالم الجديد، لما لم يجدوا اسماً آخر يطلقونه عليهم.

مذبحة شولولا

كان لدى أهل شولولا ثقةٌ عظيمةٌ بصنمهم كيتزالكواتل بحيث إنهم أدركوا أنه ما من قوةٍ بشريةٍ قادرة على قهرهم، وإنما قبل ذلك يُقضى على أعدائهم في وقتٍ وجيز، أولاً لأنهم قليلو العدد وثانياً لأن أهل تلاكسكالا قد جلبوهم إلى هنا بالتغرير، ولذلك سوف يفتكون بهم، إذ إنَّهم يثقون كثيراً بصنمهم ويعتقدون أنه بصاعقةٍ ونارٍ من السماء سوف يمحقونهم ويقضون عليهم ويغرقونهم بالمياه.

كانوا يقولون بالفم الملآن، ويعلنون بأعلى الأصوات قائلين: دع هؤلاء الدخلاء الأجانب يصلون، لنرى ما هي قوتهم، لأن إلهنا كيتزالكواتل موجودٌ هنا معنا، وفي مثل لمح البصر سوف يقضي عليهم، دع هؤلاء الأنذال يصِلون، لنرهم الآن، لنستمتع بخزعبلاتهم وخدعهم التي معهم يجلبون، إنهم مجانين أولئك الذين يثقون بهؤلاء الشاذين المخنثين، إنهم ليسوا إلا نساءً مومسات لرجالهم، فاستسلموا لهم خوفاً.

دعهم يصِلون... هؤلاء المأجورون، لقد قبض جيداً هؤلاء السفلة ثمن خيانتهم. انظر إلى أهل تلاكسكالا الأوغاد الجبناء الذين يستحقون العقاب: وجدوا أنفسهم وقد غلبهم المكسيكيون لذا فإنهم يبحثون عن أناسٍ وافدين لكي يدافعوا عنهم.

كيف تبدلتم في وقتٍ قصير، وخضعتم لأناسٍ متوحشين دخلاء وأجانب، وفي العالم غير معروفين؟ قولوا لنا من أين جلبتموهم مأجورين لأجل انتقامكم. كم أنتم تعساء إذ ضيعتم السمعة الخالدة لأجدادكم الصناديد أصيلي النسب من التيوشيشيميك القدماء، الذين سكنوا هذه الأراضي غير الصالحة للسكن أصلاً! ما الذي سيحصل لكم أيها القوم

الضالون؟ لكن انتظروا فسرعان ما سترون العقاب الذي سيحل بكم من إلهنا كيتزالكواتل.

هذه وأشياء أخرى مشابهةً يرددون، لأنهم كانوا يعتقدون أن المهاجمين بالفعل سوف يحترقون بصواعق ناريةٍ تسقط عليهم من السماء، وأنّ معابد أصنامهم نفسها ستتفجر منها أنهارٌ غزيرةٌ تغرقهم، أي أهل تلاكسكالا وجماعتنا (الإسبان)، وليس بقليلٍ الرعب الذي بثوه في قلوب حلفائنا من تلاكسكالا معتقدين أنه سيحصل كذلك كما كان يكرر أهل شولولا.

يقول ذلك على وجه الخصوص كهنة معبد كيتزالكواتل، كل هذا يصرحون به على الملأ.

لما رأى أهل تلاكسكالا كيف أن الإسبان يتوسلون اسم سانتياغو، وبدؤوا بحرق معابد الأصنام وإسقاطها أرضاً وتدنيسها بكل إصرار، ولما رأوا أنها لا تفعل شيئاً ولا تسقط صواعق ولا تخرج أنهار ماءٍ اكتشفوا الخديعة وأدركوا كيف أن كل ذلك كان زيفاً وكذباً.

وبذلك امتلؤوا حماساً كما ذكرنا فقد وقعت في هذه المدينة مذبحةٌ كبيرةٌ، لا يمكن تصورها، حيث رأى حلفاؤنا جيداً شجاعة الإسبان، ومن حينه فصاعداً لم يتورعوا عن ارتكاب جرائم أكبر، كل ذلك تسيره الإرادة الإلهية لربنا المعبود بأن تفتح هذه الأرض ويتم إنقاذها وإخراجها من سلطة الشيطان.

قبل الشروع بالحرب، تم إيفاد رسلٍ وسفراء من مدينة تلاكسكالا إلى أهل شولولا، يرجونهم بأن يجنحوا للسلم، وبعثوا إليهم أنهم لا يبغون

حربهم، وإنما يقصدون شن الحرب على أهل كولهوا والمكسيكيين، كما قد قيل. يُطلق عليهم هذا الاسم واللقب "كولهوا" لأنهم أتوا من مناطق كولهواكان من جهة الغرب، و"مكسيكيون" لأنه هكذا كانت تدعى مدينة مكسيكو حيث يقطنون ولهم قوةٌ عظيمةٌ: أَرسل إليهم أهل تلاكسكالا سفيراً ليقول لهم أن يأتوا إلى كورتيس ويعقدوا معه السلم، وألا يخشوا أي أذىً من جانب الرجال البيض الملتحين، لأنهم أناسٌ أكابر ونبيلون جداً، وأنهم يريدون صداقتهم، وهكذا رجوهم كأصدقاء لهم بأن يتلقوا أولئك بالسلم، لأنهم إذا ما فعلوا ذلك فإنهم سيحظون منهم بالمعاملة الحسنة ولن يُساء إليهم البتة، لكن في حال العكس أي إذا ما أغضبوهم فإن الرجال البيض شرسون جداً، جسورون وشجعانٌ، ويجلبون معهم أسلحةً متفوقةً وقويةً جداً، وهي مصنوعةٌ من الحديد الأبيض.

كانوا يقولون ذلك لأنه لم يكن يوجد عندهم حديد، بل نحاس. وشرحوا لهم أن أولئك يحملون معهم مقذوفاتٍ نارية وحيواناتٍ شرسة يجرونها خلفهم مربوطة بجنازير من حديد، وينتعلون ويلبسون الحديد، وكيف يحملون أقواساً قويةً جداً، وأسوداً في غاية الشجاعة تأكل الناس، ويقصدون بذلك كلاب الحراسة وكلاب الصيد التي جلبها معهم قومنا، والتي كانت ذات فعاليةٍ كبيرة، وهكذا فإنه بوجود هذه الأشياء لن يستطيعوا الهرب ولا النجاة، إذا ما غضب "الآلهة" وإذا لم يُلق الآخرون السَّلَمَ. وأكدوا لهم أن هذا الرأي يبدو جيداً جداً لتجنب شرٍّ أكبر، وأنهم ينصحونهم كأصدقاء لهم بأن يفعلوا كذلك.

مقتل مبعوث تلاكسكالا

مع ذلك لم يلقوا بالاً لهذه الأشياء، وإنما اتبعوا رأيهم بعدم التسليم، والموت دون ذلك، وبدل هذه النصيحة الحميدة وبدل الجواب الجيد إلى جماعة تلاكسكالا فإنهم قاموا بسلخ وجه باتلاهواتزين سفيرهم، وهو رجلٌ رفيع القدر محترمٌ. وفعلوا نفس الشيء بيديه اللتين سلخوهما إلى مفصل الساعد، وقاموا بحز كفيه من المفصل بحيث صارتا تتدليان. وأرسلوه بهذه الحال بكل قسوةٍ قائلين له: سِر عائداً وأخبر جماعة تلاكسكالا وهؤلاء الحثالة الشحاذين، أو الآلهة أو كائناً من يكونون، الذين تقول إنهم قادمون، أن هذا هو جوابنا لهم.

وهكذا عاد السفير المسكين بحالٍ من الأذية والألم، و هو ما أشاع نفوراً و ألماً عظيمين في المنطقة، إذ إنَّه كان يعدّ من كرام وأكابر الرجال في هذه الناحية وله قدرٌ واحترام. تألموا لما رأوا هذا الاجتراء والمعاملة الخسيسة، التي منها مات باتلاهواتزين في سبيل وطنه وقومه تاركاً ذكراً لا يُمحى بين قومه كما يشيرون في مفاخرهم وأناشيدهم.

غضب أهل تلاكسكالا كثيراً، فقد اعتبروا هذا الأمر إهانةً عظيمةً ولم يسبق لها مثيلٌ في العالم، حيث أن السفراء لهم قدرٌ وتشريف من جانب الملوك والسادة الأجانب فمن خلالهم يتم الإبلاغ عن السلم والحرب إضافةً إلى أمورٍ أخرى تحصل عادةً بين الدول والممالك.

وممتلئين استهجاناً قالوا لكورتيس: "سيدنا المبجل، انتقاماً لهذا العار الكبير وفعلة السوء الوقحة هذه، نريد أن نمضي معك لسحق وتدمير أولئك القوم وديارهم، وألا يبقى على قيد الحياة بشرٌ ضارون وعنيدون

وعتاةٌ بغاةٌ كأولئك، حتى لو لم يكن هنالك من سببٍ آخر إلا ذلك، فإنهم يستحقون عقاباً أبدياً، لأنه بدل أن يشكرونا على مسعانا الحميد، قاموا باحتقارنا وازدرائنا بسبب محبتنا لك."

من جانبه الهمام كورتيس أجابهم بوجهٍ واجمٍ قائلاً: "بألا يهتموا وأنه يعدهم بالانتقام لذلك"، وبالفعل لأجل ذلك و لأجل خياناتٍ أخرى، شُنت على أهل شولولا حربٌ ضروسٌ، ماتت فيها أعدادٌ كبيرةٌ منهم.

يقول أهل شولولا إنهم سوف يغرقونهم بفضل صنمهم كيتزالكواتل المعبود أكثر من كل ما سواه في هذه الأرض، إذ إنَّ معبد شولولا مكرسٌ تكريماً للآلهة. ويقولون إنه إذا ما تم انتزاع شيءٍ مما هو مغروسٌ من أيام أسلافهم، فإنه من مكانه ينبع الماء. ولكي لا يغرقوا فإنهم يقتلون فداءً طفلين أو ثلاثةً، ومن دماء هؤلاء ممزوجةً بالكلس، يصنعون عجينةً ويسدون بها الينابيع والعيون التي تسيل ماءً.

وموقنين بذلك كان يقول أهل شولولا إنه عندما يحصل لهم شيءٌ في حرب الآلهة البيض وأهل تلاكسكالا فإنهم حينئذٍ سيقتلعون كل ما هو مغروس، ومنه ستتفجر ينابيع ماءٍ تغرقهم، وهذا ما فعلوه ونفذوه، عندما وجدوا أنفسهم في كربٍ عظيمٍ مثل الذي وجدوا أنفسهم فيه.

خراب شولولا

رغم أنهم فعلوا ذلك لم يفدهم الأمر بشيء وخُذلوا أيّما خذلان، وكرجال يائسين فإن أكثر من مات في حرب شولولا تلك هم من رموا بأنفسهم وتردّوا على أمهات رؤوسهم من أعلى المعبد إلى الأسفل، لأنّ

هذه عادةٌ قديمةٌ لديهم منذ أصولهم ونشأتهم، إذ إنَّهم قوم ذوو أنفةٍ و عزةٍ لا يقبلون ذلاً وهم ذوو شكيمةٍ وبأسٍ، وما يميزهم هو الانتحار بطريقةٍ مخالفة للأمم الأخرى أي الموت بالسقوط على رؤوسهم.

في النهاية فإن أكثر من ماتوا في هذه الحرب هم اليائسون الذين قتلوا أنفسهم. لما انتهت حرب شولولا فهم أهلها وأدركوا أن ربّ الرجال البيض أكثر رفعةً وأبناءَه أقوى.

لّما كان أهل تلاكسكالا أصدقاؤنا يجدون أنفسهم في كربٍ شديدٍ بسبب الحرب والقتل كانوا ينادون ويتوسلون بالرسول سانتياغو قائلين بصرخاتٍ عاليةٍ: يا سانتياغو! وصارت هذه عادةٌ عندهم إلى يومنا هذا حينما يجدون أنفسهم في مأزقٍ ما فإن أهل تلاكسكالا الحاليين يتوسلون اسم القديس سانتياغو.

استخدم أهل تلاكسكالا طريقةً جيدةً جداً أشار عليهم بها كورتيس كي يتم تمييزهم، ولئلا يموتوا بين الأعداء خطأً؛ لأن الأسلحة والشارات متشابهةٌ وبينها القليل من الاختلاف، وبما أن الحشود كبيرةٌ في كل طرفٍ فمن الضروري إجراء ذلك، لأنه عند اشتداد الوطيس قد يقتل بعضهم بعضاً خطأً. وهكذا وضعوا على رؤوسهم عصائب يُعرف بها من هم في حلفنا، وهذه لم تكن علامة قليلة.

في البدء تم تدمير شولولا، ومات عددٌ كبيرٌ من الناس، ونُهبت وسرقت أموالهم، عبرت إثر ذلك جيوشنا إلى الأمام زارعةً الخوف الكبير والذعر في طريقها، إلى درجة أن خبر هذا التنكيل وصل إلى كل أرجاء الأرض، واندهش الناس لسماع هذه الأشياء الجديدة، وكيف قُهر أهل شولولا وباؤوا بالهزيمة والخسران، وأكثرهم باتوا قتلى ومدمرين في وقتٍ قصير وكيف لم ينفعهمْ صنمهم كيتزالكواتل بشيءٍ البتة.

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل السادس

إرسال دفعةٌ جديدةٌ من الهدايا وظهور طيف تيزكاتليبوكا قرب بركان بوبوكاتيبيتل المدخِّن

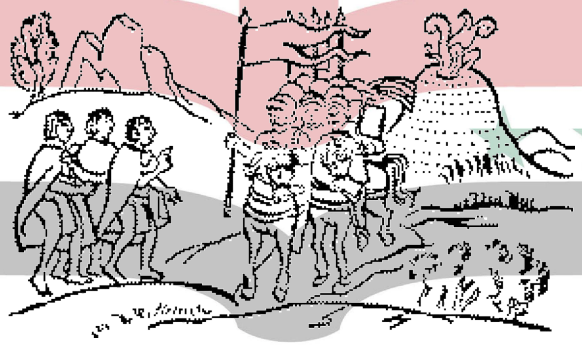

النصّ التالي لرواة ساهاغون من السكان الأصليين، وهو محفوظٌ في "مخطوط فلورنتينو"، يروي نوادر مثيرة جداً للاهتمام. تابع الفاتحون بعد مذبحة شولولا، مسيرهم برفقة أهل تلاكسكالا باتجاه وادي مكسيكو. لما وصلوا إلى مشارف البراكين، أي المكان الذي يدعوه المكسيكيون بـ "مصطبة النسر"، خرج لهم رسلٌ جددٌ أرسلهم موكتيثوما ويترأسهم تزيهوابوبوتزين.

لدى تقديم الأشياء الذهبية للإسبان فإن المكسيكيين يرسمون لنا بشكلٍ ممتعٍ كيف كانت ردة فعل الغرباء: "انفرجت أساريرهم... كما لو

أنهم قردةٌ يرفعون الذهب... كما لو أنَّهم خنازير جائعةٌ يتحرقون شوقاً للذهب..."

فيما يأتي نروى خديعة تزيهوابوبوكاتزين، الذي حاول أن يتقمص دور موكتيثوما. لما فشلت محاولته نجد أنفسنا أمام سلسلةٍ من المبعوثين. إنهم مزيدٌ من السحرة الذين يحاولون إعاقة تقدم الفاتحين. لكن هؤلاء لا يتوقفون. إن الحضور الغامض لرجلٍ يتصنع أنه ثملٌ ويخرج في طريق السحرة متنبئاً بخراب مكسيكو يعمل أشياء خارقة، يجعل السحرة ينسحبون. هؤلاء يظنون أن تيزكاتليبوكا قد تجلّى لهم.

لدى عودتهم إلى مكسيكو - تينوشتيتلان، راحوا يروون لموكتيثوما ما رأوه. حينئذٍ انهارت معنويات الملك المكسيكي العظيم، تردّت معنوياته أكثر فأكثر. لكنه استسلم للقدر متقبلاً ما هو آتٍ.

ردة فعل الفاتحين عند تلقي الذهب

وأرسل موكتيثوما بعد ذلك في طلب حضور عدة مسؤولين لديه. ذهبوا للقاء (الإسبان) عند مشارف البركان المدخن بوبوكاتيبيتل، والبركان المدخن الآخر إزتاكتيبيتل، هناك في المكان المدعو "مصطبة النسر".

قدّموا للإسبان أعلاماً ذهبيةً، أعلاماً من ريش الكيتزال وعقوداً من الذهب. وعندما أتموا ذلك، انفرجت أسارير وجوه أولئك، فرح (الإسبان) كثيراً، إنهم يشعرون بالمتعة. كما لو أنهم قرودٌ صاروا يرفعون الذهب، كما لو أنهم بلغوا غاية النشوة، كما لو أنه قد تجددت و استنارت قلوبهم. حقاً إن هذا هو ما يتوقون إليه أشدّ التوق. تنجذب أجسامهم له. عندهم جوعٌ

شديدٌ لذلك. كخنازير جائعةٍ يتحرقون شوقاً وطمعاً بالذهب. وأما أعلام الذهب فصاروا ينتزعونها بلهفةٍ، يهزونها من جانبٍ لآخر، ينظرون إليها من جهةٍ وأخرى. إنهم كمن يتكلم لغةً بربريةً، كل ما يقولونه هو بلغةٍ بربرية.

تزيواكبوبوكا يدعي أنه موكتيثوما

وعندما رأوا تزيواكبوبوكا سألوا:

- هل هذا هو موكتيثوما؟

قال لهم الذين يرافقونهم، أي أذنابهم ومُخبروهم ووشاتهم من تلاكسكالا ومن ثيمبوالا، الذين يرافقونهم بكل خفةٍ و خُبث. قالوا لهم:

- ليس هو، يا سادتنا. إنه تزيواكبوبوكا: وهو يتصنع أنه موكتيثوما.

سألوه:

- هل أنت موكتيثوما؟

أجاب:

- أجل، أنا خادمكم. أنا موكتيثوما.

لكنهم ردوا عليه:

اخرج من هنا... لماذا تخدعنا؟ من تظننا نكون؟

أنت لن تخدعنا ولن تسخر منا.

أنت لن تخيفنا ولن تعمي عيوننا.

أنت لن تصيبنا بالعين ولن تلوي وجوهنا.

أنت لن تسحر عيوننا ولن تزيغها.

أنت لن تميت عيوننا ولن تفقأها.

أنت لن تقذف طيناً على عيوننا، ولن تلطخها بالوحل.

أنت لست **(هو)**، هناك موكتيثوما**!** لن يمكنه الاختفاء عنا، ولن يمكنه الاختباء منا.

إلى أين يمكنه أن يذهب؟

هل سيتحول إلى طيرٍ ويطير في السماء؟ أم سيسلك إلى باطنِ الأرضِ سبيلاً؟

هل سيثقب تلًّا ما ويلجُ داخله؟

نحن سوف نراه. لا بد من أن نرى وجهه.

سنسمع كلمته، من شفتيه سنسمعها.

هكذا ببساطةٍ احتقروه ولم يعبؤوا به البتة. وهكذا فشلت مرةً أخرى هدايا الترحاب وسفارة الاستقبال هذه. لذلك من تلك اللحظة توجهوا مباشرةً **(إلى مكسيكو)**.

موكتيثوما يرسل المزيد من السحرة

الآن هناك دفعةٌ جديدةٌ من المبعوثين: سحرةٌ وبينهم كهنة. أيضاً ذهبوا وخرجوا للقائهم. لكنهم مثل سابقيهم لم يتمكنوا من فعل شيءٍ هناك، لم يقدروا أن يسحروا عيونهم، لم يستطيعوا السيطرة عليهم، في الواقع لم يسيطروا عليهم. ولا حتى وصلوا إلى هناك. لم يتعد الأمر أن أحد الثملين

صادفهم في الطريق، خرج للقائهم ووجدوه فجأةً. أما الشكل الذي رأوه فيه فقد كان لباسه على هيئة رجال منطقة شالكو: متزينٌ بسترةٍ، كما لو أنه سكران، يمثل دور الثمل، يتصرف بطريقة من دارت الخمرة في رأسه، ويحزم صدره بثمانية خيوطٍ من النجيل (و هو عشبة شائعةٌ معروفة).

ظهور تيزكاتليبوكا

فجأةً خرج في طريقهم عندما صاروا أمام الإسبان، حين أوشكوا أنْ يلتقوه. هرع مباشرةً إلى المكسيكيين وقال لهم:

-لأيّة غايةٍ أتيتم إلى هنا؟ ما الذي تبغونه؟ ما الذي ينوي فعله موكتيثوما؟ ألحدّ الآن لم يسترجع عقله؟ ألغاية الآن لايزال خائفاً رعديدا؟

"هو ارتكب أخطاء: لقد غامر بأتباعه غاية المغامرة، لقد دمر الناس".

"يضرب بعضهم بعضاً، يخدعُ بعضهم بعضاً".

"يكثر هرجهم، يسخر بعضهم من بعض."

وعندما سمعوا تلك الأشياء، عندما سمعوا خطابه، حاولوا عبثاً الاقتراب منه. راحوا يتوسلون إليه، وجهزوا له على وجه السرعة مذبحاً، معبداً صغيراً وكرسياً من النجيل. لكن حينذاك... اختفى فجأةً عن أنظارهم.

عبثاً حاولوا، وعبثاً أقاموا له معبداً، لكنهم ما عادوا يسمعون شيئاً من فمه فدخلوا المكان. وهناك شرعَ يضايقهم، يوبخهم بقسوةٍ، كما لو أنه يتكلم إليهم من بعيد. سألهم:

- لماذا أتيتم عبثاً للوقوف هاهنا؟ إنّ مكسيكو لن تستمر بعد الآن! سيُقضى عليها إلى الأبد!"

- "اغربوا من هنا: لم يعد لكم بقاءٌ هنا! عودوا إلى هناك، أرجوكم!... استقبلوا بأبصاركم مكسيكو. فإن ما هو آتٍ آتٍ!"

بعد ذلك أتوا ليستطلعوا، أتوا ليُمعنوا النظر بسرعةٍ. شاهدوا المعابد تشتعل جميعها، والدور العامة، ومدارس الكهنوت، وكل بيوت مكسيكو. وكل شيء كما لو أن هناك معركة.

وعندما رأى السحرة كل هذا، فكأنما ذُهلت قلوبهم. صاروا يتلعثمون بالكلام. كما لو أنهم ابتلعوا شيئاً وغصُّوا به. قالوا:

ليس نحن من عليه رؤية هذا: الذي كان يجب أن يراه هو موكتيثوما: كل هذا الذي رأيناه! "هذا ليس شخصاً عادياً، إنه الشاب تيزكاتليبوكا!" (الأمير الذي سافر قديماً باتجاه الشرق ولم يعد حتى حينه).

فجأةً اختفى، ما عادوا يشاهدونه.

والمبعوثون أبوا الذهاب للقاء (الإسبان)، توقفوا عن المسير باتجاههم. فقط من هناك عاد السحرة والكهنة ليقصوا الأمر على موكتيثوما. عادوا مع من ذهبوا قبلهم، من جماعة تزيواكبوبوكا.

فتور همة موكتيثوما

ولَّما وصل هؤلاء المبعوثون، قصوا على موكتيثوما ما جرى، وكيف رأوه. وعندما سمعهم موكتيثوما، لم يفعل أكثر من إحناء جبهته، ومكث

مطأطئ الرأس. لم يتفوه بأية كلمةٍ. فقط أمسك عن الكلام. وبقي وقتاً طويلاً على هذه الحال ناكس الرأس صامتاً وكل ما قاله وكل ما أجاب به هو هذا:

- ما الحل يا شجعاني؟ بهذا صرنا في خبر كان!... بهذا أتانا قدرُنا!... هل يوجد جبلٌ ما يمكن أن نصعد إليه؟ أم هل سنهرب؟ نحن مكسيكيون: هل حقاً سيبقى مجدٌ للأمة المكسيكية بعد الآن؟ جديرون بالشفقة هم العجوز المسكين والعجوزة المسكينة، والأطفال الذين ما زالوا يحبون والذين لم يبلغوا رشدهم بعد. أين يمكن أن يصبحوا في مأمنٍ لكي ينجوا؟ لكن... ما من جدوى.. إذن ما العمل؟ ألم يبق شيءٌ نفعله؟ كيف العمل وأين؟ أتانا قدرنا... كيفما يكون ومهما يكن... فإن نصيبنا أن نراه بأعيننا...".

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل السابع

الأمير إشتليلشوشيتل يرحب بالإسبان

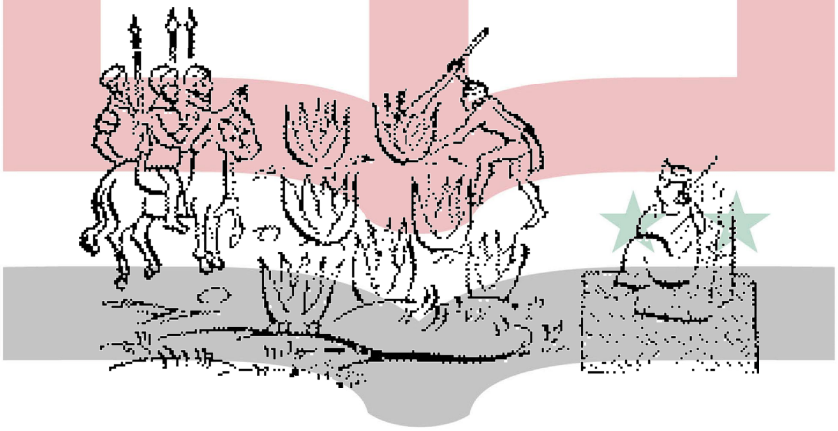

تاركين وراءهم البراكين، أتى الإسبان خارجين من جهة تلالمانالكو، بهدف التوجه لاحقاً إلى مكسيكو - تينوشتيتلان. حسب شهادة مخطوط راميريث فإنهم عقب نزولهم من الجبال خرج للقاء كورتيس الأمير إشتليلشوشيتل شقيق كاكاماتزين، سيد تيتزكوكو، برفقة أناسٍ وطالباً السلام.

يشير "مخطوط راميريث" الذي يحفظ مقاطع من شهادةٍ هنديةٍ قديمةٍ مفقودةٍ حالياً، إلى أنه بفضل الأمير إشتليلشوشيتل انضم شعب تيتزكوكو بسهولةٍ إلى الفاتحين منذ تلك اللحظة. ويضيف أنه في ذلك الوقت بالضبط زار كورتيس مدينة تيتزكوكو.

حول هذه النقطة يوجد كثير من الاختلافات في مصادر أخرى، إذ إنه لا برنال دياث دل كاستيّو، ولا رواة ساهاغون، ولا حتى فرناندو دي ألفا إشتليلشوشيتل يذكرون هذه الزيارة الأولى إلى تيتزكوكو، وإنما فقط يتطرقون إلى مسير الإسبان باتجاه أثابالا من حيث ساروا أخيراً باتجاه العاصمة المكسيكية.

لكن في جميع الأحوال فإن المعلومات التي يقدمها "مخطوط راميرث" تروي طرائف جدٌّ ممتعة، على سبيل المثال ردة الفعل العنيفة للسيدة ياكوتزين، والدة إشتليلشوشيتل، التي لما دُعيت لتغيير دينها، أجابت ابنها بأنه قد جُنَّ وفقد عقله، "لأنه بسهولةٍ انهزم نفسياً أمام قلةٍ من الهمج"، أي الفاتحين.

بينما الأمور كذلك، فإنه في مكسيكو–تينوشتيتلان، لما علم موكتيثوما بوصول الفاتحين إلى مشارف تيتزكوكو، جمع للمرة الأخيرة أعيان السكان الأصليين للتباحث في ما إذا كان من المناسب أم لا استقبال الغرباء سلمياً. لكن بالرغم من النذر المشؤومة لكويتلاهواكاتزين، يقرر موكتيثوما أخيراً استقبال الإسبان بشكلٍ سلميّ.

المسير باتجاه تيتزكوكو

فرحَ الإسبان وهم في أعالي الجبال لما شاهدوا الكثير من القرى، ورأى البعض منهم بأن يعودوا إلى تلاكسكالا لكي يرجعوا بعددٍ أكبر مما هم عليه الآن. لكن كورتيس شجعهم، و هكذا بدؤوا المسير بالالتفاف على تيتزكوكو، ومكثوا تلك الليلة في منطقةٍ جبلية.

وفي يوم آخر انطلقوا سائرين، وبعد أكثر من فرسخٍ وصل إشتليلشوشيتل وإخوته يرافقهم حشدٌ كبيرٌ من الناس، وهذا ما أثار ريبة كورتيس في البداية، لكن أخيراً عبر الإشارات ومن خلال المترجمين علم أنهم أتوا مسالمين، فارتاحت نفسه و اطمأنت.

وصل أهل تيتزكوكو إلى حيث المسيحيين، ولما أروا إشتليلشوشيتل مكان القائد مضى إليه بفرحةٍ عارمةٍ وسلّم عليه وفق عاداته، وكورتيس حسب عاداته أيضاً، وبعد أن رآه دهش لرؤية رجلٍ بهذا البياض وله لحيةٌ، وهو في زينته ووقاره، وكورتيس دُهش أيضاً لما رآه هو ورجاله، ولا سيّما تيكوكولتزين الذي لا يوجد إسباني أكثر بياضاً منه.

وفي النهاية بلسان مارينا وأغيلار رجاه أهل تيتزكوكو بأن يذهبَ إلى مدينتهم لإجزال العطايا له وإكرامه وخدمته. كورتيس قبل الدعوة شاكراً، وأن يؤجل إلى هناك التحدث إليهم عن سبب قدومه.

الوصول إلى المدينة

وهناك بدعوةٍ من إشتليلشوشيتل، أكل كورتيس وأتباعه من الهدايا التي جلبوها لهم من تيتزكوكو، ومشوا بعد ذلك إلى مدينتهم، وخرج لاستقبالهم كل الناس بترحابٍ عظيم. كان الهنود يجثون على ركبهم ويعظمونهم كأبناءٍ للشمس، إلههم، ويقولون إنه الأوان الذي تكلم عنه كثيراً إمبراطورهم العزيز نيزاهوالبيتزينتلي.

بهذه الطريقة دخلوا وأنزلوهم في القصر الإمبراطوري، وهناك التأم جمعهم. وأحياناً كان يدخل بريدٌ وإخطاراتٌ للملك موكتيثوما، الذي سعد

كثيراً بالاستقبال الذي قام به أبناء أخيه لكورتيس وأكثر لأن كوهواناكوتزين وإشتليلشوشيتل قد تكلما معه، فقد فهم أن اشتليلشوشيتل سوف يسحب الحرس الموضوع على الحدود، لكن في حال غير ذلك فلا بأس.

كورتيس ممتناً للمودة والإكرام اللذين تلقاهما من إشتليلشوشيتل وإخوته، أراد كنوعٍ من ردّ الجميل وبلسان المترجم أغيلار أن يبلغهم شريعة الربّ، وهكذا لما جمع الإخوة وبعض السادة اقترح عليهم الموضوع قائلاً لهم بأن إمبراطور المسيحيين قد أرسلهم من مكانٍ قصيّ كي يبلغوهم شريعة المسيح التي سوف يبينونها لهم.

شرح لهم سر خلق الإنسان وهبوطه، سر الثالوث والتجسد لإصلاح الإنسان وسر النفس والبعث، ومن ثم أخرج صليباً، ورفعه، فجثا المسيحيون على ركبهم.

وقد أجابهم إشتليلشوشيتل والآخرون إلى ذلك، فأعلنوا لهم سر العمادة. ثم أنهى حديثه قائلاً لهم: إنَّ الإمبراطور كارلوس متألماً لحالهم كونهم ضالين عن جادة الصواب، فقد أرسل إليهم (الفاتحين) لأجل هذا فقط، ولذلك فإن (كورتيس) يطلب منهم باسمه، ويرجوهم كنوعٍ من رد الجميل بأن يدينوا له بالولاء، و أن هذه هي رغبة البابا الذي بتفويضٍ منه قد أتوا. لما طلب منهم الجواب، أجابه إشتليلشوشيتل باكياً وباسم إخوته أنه قد فهم جيداً تلك الأسرار، ويحمد الربّ الذي أنار قلبه، وأنه يريد أن يصبح مسيحياً ويبايع الإمبراطور.

إشتليلشوشيتل يعتنق المسيحية

وطلب بعدها تمثال المسيح وصلى له، وإخوته فعلوا مثل ذلك وسط سرورٍ عظيمٍ من المسيحيين الذين كانوا يبكون من السعادة، وطلبوا أن يعمدوا الداخلين الجدد في العقيدة. قال لهم كورتيس ورجال الدين الموجودين هناك إنهم سوف يعلمونهم بشكلٍ أفضل ويخصصون لهم أشخاصاً لكي يعلموهم. هو أجاب أنه على بركة (الربّ) وإن كان يرجوهم بأن يرسلوهم لهم عاجلاً، لأنه هو بطبعه يأنف عبادة الأصنام ويقول: إنه قد فهم جيداً أسرار العقيدة.

ولدى سماع ذلك حصلت الكثير من الآراء المعاكسة، أصرت إرنان كورتيس على أن يعمدوه، وكان عرابه كورتيس، ووضعوا له اسم إرناندو، لأن سيده يدعى كذلك، وكل هذا جرى بكل رسميةٍ (أي حسب الأصول).

وبعد ذلك بينما إشتليلشوشيتل وأخوه كوهواناكوتزين واقفين بهيئتهم الملكية تم إعلان بدء الشريعة الإنجيلية، إذ هو الأول وإرنان كورتيس عرابه الذي سماه إرناندو، مثل ملكنا الكاثوليكي، وأما كوهواناكوتزين فسمي بيدرو نسبة إلى بيدرو دي ألفارادو عرابه، و تلاكوتزين أيضاً سموه فرناندو، و كان عرابه كورتيس، و هكذا راح المسيحيون يتبنون بقية السادة و يضعون لهم أسماءً مشابهة لأسمائهم.

ردة فعل ياكوتزين، والدة إشتليلشوشيتل

ويُعتقد أنه في ذلك اليوم تم تعميد أكثر من عشرين ألف شخصٍ، بل أكثر من ذلك بكثير، وذهب إشتليلشوشيتل لاحقاً إلى أمه ياكوتزين، وأخبرها بما حصل، وأنه أتى إليها لتعميدها.

أجابته بأنه من المؤكد قد جُن وفقد عقله، إذ إنه بهذه السرعة انهزم معنوياً أمام قلةٍ من الهمج المسيحيين. وعلى هذا أجابها السيد إرناندو بأنها لو لم تكن أمه لكان جوابه انتزاع رأسها من بين كتفيها، وأنَّ عليها القيام بذلك وإن لم ترغب لأن ما يهم هو حياة الروح. هي أجابت عن ذلك برفقٍ ولينٍ طالبةً منه أن يَدَعَها الآن وأنها في يومٍ آخر ستنظر في الأمر، وترى ما ينبغي لها فعله. خرج من القصر وأمر بإضرام النار في الغرف التي كانت فيها، لكن آخرين يقولون: إنَّ السبب هو أنه وجدها في معبد أصنام.

أخيراً خرجت قائلةً إنها تريد أن تصبح مسيحية وأخذها لأجل ذلك إلى حيث كورتيس، وفي جمهرةٍ كبيرةٍ عمدوها، وصار إشبينها كورتيس، وأسموها السيدة ماريا، لأنها أصبحت المسيحية الأولى. وصنعوا مثل ذلك بالأميرات بناتها اللواتي عددهن أربع إضافةً إلى كثير من السيدات. وفي غضون ثلاثة أو أربعة أيامٍ أمضوها هناك قاموا بتعميد عددٍ كبيرٍ من الناس كما قد ذُكر.

مداولة موكتيثوما الأخيرة

إثر ذلك وبعد أن عرف موكتيثوما بما يحصل استدعى كاكاما ابن أخيه للمشاورة وأيضاً أخاه كويتلاهواكاتزين وبقية السادة، واقترح التداول مطولاً فيما إذا كانوا سيستقبلون المسيحيين وبأية طريقة. وهذا ما أجاب عنه كويتلاهواكاتزين بأنه حسب رأيه لا يجب استقبالهم ولا بأيّة طريقةٍ، وكاكاما أجاب أنه يخالفه الرأي، لأن ذلك سيبدو قلة مروءةٍ بما أنهم أصبحوا على الأبواب ولا يُسمح لهم بالدخول، ولا سيَّما أنه لا يليق بزعيمٍ كبيرٍ مثل عمه ألا يستقبل سفراء أميرٍ عظيمٍ مثل الذي أرسلهم، مع الأخذ

بالاعتبار أنهم إذا أرادوا شيئاً لا يروق له فبإمكانه أن يعاقبهم على تطاولهم بما أن لديه رجالاً بواسل كالذين عنده. وقال: إن هذا هو رأيه النهائي، وهكذا فإن موكتيثوما وقبل أن يعقّب أحدٌ صرح بأن ذلك يبدو له القرار الأنسب.

قال كويتلاهواكاتزين: "بحق آلهتنا لا تُدخلوا في دياركم من يطردكم منها وينتزع المُلك منكم، و... ربما حين تريدون تدارك الأمر يكون قد فات الأوان."

وبهذا انتهى واختُتِمَ المجلس وعلى الرغم من أن جميع السادة الآخرين كانوا يشيرون برؤوسهم موافقين على هذا الرأي الأخير، إلا أن موكتيثوما قرر أنه يريد استقبالهم واستضافتهم وإجزال العطايا لهم، وبأن يذهب كاكاما ابن أخيه لاستقبالهم، وأمر كويتلاهواكاتزين شقيقه بأن يذهب إلى إزتابالابان، وأن ينتظرهم هناك في قصوره.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن

وصول الإسبان إلى مكسيكو-تينوشتيتلان

بمعاونة كل الناس الذين يجلبونهم معهم من منطقة تلاكسكالا، سار الإسبان مباشرةً باتجاه مكسيكو. تبدأ نصوص رواة ساهاغون (مخطوط فلورنتينو) التي نوردها فيما يأْتي، في وصف الترتيب الذي ظهرت به مختلف كتائب جيش الفاتحين.

اقتربوا من مكسيكو من ناحية الجنوب، من جهة إتزابالبا، وصلوا حتى مفرق مكسيكو، المكان الذي سُمِّي فيما بعد ب "سان أنطون" وهو يقع حالياً حيث شارع سان أنطونيو أباد. اشتليلشوشيتل في "الرواية ١٣" يشير إلى التاريخ الدقيق لحصول ذلك: الثامن من تشرين الثاني من عام ١٥١٩.

وجهاً لوجهٍ أجرى موكتيثوما وكورتيس حواراً يحفظه لنا بحرفتَّيه رواة ساهاغون. صاح موكتيثوما حينئذ: "لا، إنه ليس حلماً، لستُ ناهضاً من النوم لتوِّي نعساً، لست أراه في أحلامي، إني لا أحلم... لقد رأيتك، لقد وضعت عيني بعينيك..."

يشير النصُّ الذي نورده هنا إلى إقامة الفاتحين في العاصمة الكبيرة وإلى مكرهم وسعيهم للاستيلاء على الذهب المخبأ في دار الخزينة.

موكتيثوما يخرج للقاء كورتيس

بينما الأمور كذلك وصل الإسبان حتى مفرق مكسيكو. هناك وصلوا إلى مبتغاهم. هنالك الهدف.

في هذا الوقت تزيَّنَ موكتيثوما بأحسن هيئةٍ كي يذهب لاستقبالهم. أيضاً فعل الشيء نفسه الأمراء الكبار والنبلاء والأعيان ورجاله. كلهم ذاهبون للقاء الواصلين. في طسوت كبيرة وضعوا أزهاراً فاخرةً: زهرة الترس، زهرة القلب، في الوسط تنتصب الزهرة زكيَّة الرائحة، والصفراءُ الفواحةُ، والزهرة الثمينة. ضُمت الورود على شكل باقاتٍ صغيرةٍ بمشابك للصدر. كما حملوا قلائد الذهب، قلائد ذات خرزٍ متدلٍّ عريض، وأطواقاً منسوجةً بإتقان.

إذن هناك في هويتزيلان يخرج للقائهم موكتيثوما. من ثم يقدم عطايا للقائد ونائبه والمحاربين. يهديهم الهدايا، يضع زهوراً على أعناقهم، يعطيهم أطواقاً من الزهور ومشابك من الورود لتثبيتها على الصدور، يثبت لهم على رؤوسهم باقاتٍ صغيرة من الورد.

يضع في الحال في المقدمة قلائد الذهب، كلَّ صنفٍ من العطايا، وهدايا الاستقبال.

حوار موكتيثوما وكورتيس

لَّما انتهى من تقديم الأطواق لكلِّ واحدٍ، سأل كورتيس موكتيثوما: أهو أنت؟ أحقاً هو أنت؟ هل فعلاً أنت موكتيثوما؟

أجابه موكتيثوما:

- نعم أنا هو.

في الحال يقف موكتيثوما على قدميه، ينهض لاستقباله وتحيته، يقترب منه و ينحني، وبكل استطاعته يخفض رأسه، هكذا يخاطبه، يقول له:

سيدنا: لقد أرهقت نفسك وأتعبتها، ها قد وصلت إلى الأرض. لقد وصلت إلى مدينتك: مكسيكو. أتيت إلى هنا لتولي مُلكك والجلوسِ على عرشك. لوقتٍ وجيزٍ احتفظوا لك به، حافظوا لك عليه أولئك الذين مضوا، نوابك، السادة الملوك: إتزكواتزين، موكتيثوماتزين الكبير، أشاياكاتل، تيزوك، أهويتزوتل. آه لوقتٍ وجيزٍ حافظوا لك عليه. هم حكموا مدينة مكسيكو. تحت سيفهم، تحت عباءتهم خضعت لهم عامة الشعب. هل سيرون ويعلمون شيئاً عن أحفادهم الذين هم نحن؟

ليت واحداً منهم يستطيع النظر الآن ليرى باندهاشٍ ما أراه الساعة يحدث معي! ما أراه الآن: أنا العقب، الباقي على قيد الحياة من سادتنا. لا أنا لست في حلم، لست أستيقظ من الحلم شبه نائم: إني لا أرى هذا في الحلم،

لست أحلم...لقد رأيتك، لقد وضعت عيني في وجهك!... منذ خمسة أو عشرة أيامٍ وأنا مغمومٌ: نظري كان مشدوداً إلى جهة "الغيب".

وأنت بين غيومٍ وبين ضبابٍ قدمت. إنّ هذا ما قاله لنا الملوك، الذين حكموا، والذين أداروا شؤون هذه المدينة: أنك سوف تجلس على كرسيك، في مملكتك، أنك سوف تأتي إلى هنا... فقد تم الآن: ها قد وصلت، بتعبٍ كبيرٍ، بهمةٍ أتيت. هلم إلى الديار: تعال واسترح، استلم بيوتك الملكية، أنعش جسدك. هلموا إلى أرضكم يا سادتنا!"

عندما أنهى مكوتيثوما خطابه: سمعه الماركيز، ترجمته له مالينتزين، أفهمته إياه.

وبعد أن استوعب معنى خطاب موكتيثوما، قدم له جواباً بلسان مالينتزين. قال له بلغةٍ أجنبية، أجابه بلغةٍ بربرية:

اطمئن يا موكتيثوما، لا تخشَ شيئاً. نحنُ نحبك كثيراً. قلبنا راضٍ جداً اليوم. نرى وجهك، نسمع صوتك. منذ وقتٍ طويل ونحن راغبون في رؤيتك.

وأردف قائلاً:

ها قد رأينا، ها قد وصلنا إلى دارك في مكسيكو، بهذه الطريقة ستستطيع أن تسمع كلماتنا بكل هدوءٍ وعلى مهل.

بعد ذلك أخذوه من يده، وهم يرافقونه. يربتون على ظهره، مظهرين بذلك مودتهم له. فيما يتعلق بالإسبان فإنهم يمعنون النظر في الأشياء، ينقلون أبصارهم من شيءٍ إلى آخر. يترجلون عن الأحصنة، يصعدون من جديد، ينزلون مرةً أخرى، وهم يتفحصون بنظراتهم المكان.

وهؤلاء هم جميع الأعيان الذين كانوا إلى جانبه:

الأول كاكاماتزين، ملك تيتزكوكو.

الثاني تيتليبانكيتزالتزين، ملك تلاكوبان.

الثالث إتزكواوتزين، ملك تلاتيلولكو.

الرابع توبانتيموتزين، خازن موكتيثوما في تلاتيلولكو.

وقف هؤلاء هنالك صفاً.

وثمة أيضاً ستة أمراء آخرين من تينوشتيتلان.

لكن حين أُسِرَ موكتيثوما فإنهم بكل بساطةٍ اختبؤوا وتخفوا، تركوه مهجوراً بكل خسةٍ ونذالة!...

دخول الإسبان إلى مكسيكو - تينوشتيتلان

ولمَّا وصلوا إلى الدار الملكية، وضعوا موكتيثوما تحت الحراسة، وأبقوه تحت المراقبة. ليس هو فحسب، وإنما أيضاً إتزكواوتزين. أما الآخرون فقد خرجوا من هناك.

بينما الأمور كذلك تم إطلاق أحد المدافع: حين ذاك اختلط كل شيءٍ، الناس يركضون على غير هدىً، إنهم يتفرقون ولا يلوون على شيء، تشتتوا كما لو أن أحداً ما يطاردهم بسرعة. كل ذلك كما لو أنهم جميعاً قد أكلوا فطوراً سامة (أي إنهم أصيبوا بالزحار)، كما لو أنهم رأوا شيئاً مرعباً. سيطر الذعر على الجميع، كما لو أن كل الناس قد انخلعت قلوبهم. وعندما يحلُّ الليل يزدادُ الرعب أضعافاً، الذعر يستولي على الجميع، الوجل يسيطر على العامة، يطير النوم من عيونهم بسبب الخوف.

عندما أصبح الصباح نادى منادٍ طالباً كل ما يحتاجون إليه: عجةً بيضاء، دجاجاً بلدياً مقلياً، بيض دجاج، ماءً نقياً، حطباً، حطباً مقطعاً، فحماً. أيضاً قدوراً عريضةً، نظيفةً وملمعةً، جراراً، أباريق، فناجين، وبالمجمل كل أداةٍ من السيراميك. هذا ما أمر موكتيثوما بإحضاره. لكن كبار المسؤولين الذين أمرهم بذلك ما عادوا يلقون له بالاً، وإنّما كانوا غاضبين، لم يعودوا يطيعونه، لم يعودوا في صفه. لم يعد مطاعاً. لكن بالرغم من ذلك فإنهم على مضضٍ يحملون المؤن في طسوتٍ، يقدمون كل ما هو مطلوب. طعاماً وشراباً وعلفاً للخيول.

الفاتحون يُبدون شغفهم بالذهب

بعد أن نزل الإسبان في الدور الملكية، قاموا باستجواب موكتيثوما بشأن الموارد وخزائن المدينة: الشارات الحربية، التروس، استنطقوه طويلاً وبإلحاحٍ طلبوا منه الذهب. وراح موكتيثوما بعدها يرشدهم وهم يحيطون به كالسوار و يلتصقون به. هو يمشي في الوسط، يسير أمامهم. يضيِّقون عليه، يأخذونه في طوقٍ مضروبٍ حوله.

وعندما دخلوا إلى دار الخزينة، التي تدعى تيوكالكو، ألقوا خارجاً كل ما هو منسوجٌ من الريش، مثل المشابك من ريش الكيتزال، وأيضاً رموا تروساً متقنة الصنع، وأقراصاً من الذهب، وأطواقاً للآلهة، وأقراطاً للأنف، مصنوعةً من الذهب، وأقراطاً من الذهب، وتعاويذ ذهبيةٍ وحلياً أخرى. في الحال تم تجريده من كل تروس الذهب وأيضاً من كل الشارات. ومن ثم صنعوا كرةً كبيرةً من الذهب، وأشعلوا النار، أي أضرموا لهباً بكل ما تبقى، مهما كان ثميناً: وبهذا احترق كله.

وأما الذهب فقد حوله الإسبان إلى سبائك، وأما حجر الفيروز فإن كل ما رأوه جميلاً استولوا عليه، لكن بقية الأحجار الكريمة أخذها أهل تلاكسكالا. بعد ذلك راحوا يفتشون في كل اتجاه، يتحرون، بحثوا عن دار الخزينة والمستودعات، واستولوا على كل ما وقعت عليه عيونهم، وكل ما بدا لهم جميلاً.

الإسبان يستولون على ثروات موكتيثوما

يمضون مباشرةً إلى دار خزينة موكتيثوما. هناك يُحتفظ بما هو خاص بموكتيثوما، في المكان المسمى توتوكالكو "موضع بيت الطيور". إنهم يتزاحمون كما لو أنهم قطيع، يربت بعضهم على أكتاف بعض: قلوبهم تطير فرحاً.

الإسبان يصهرون هدايا الذهب

وعندما وصلوا، ودخلوا إلى ركن الكنوز، فكأنهم قد بلغوا هنالك المدى. راحوا يدخلون في كل ركنٍ وزاوية. يطمعون بكل شيء ويريدونه لهم، يتملكهم الجشع.

مباشرةً تم إخراج جميع الأشياء التي هي ملكه الخاص، ما تعود حيازته له، حصته الخاصة، كل شيءٍ ذي قيمة: عقودٌ من الأحجار الكريمة، زينةٌ ذات نسيجٍ رائع، معاصم ذهبية، وخواتم ذات أجراس من ذهب تُربط على الكاحل، وتيجانٌ ملكية، أشياء خاصة بالملك ومخصصة له فقط. وما سوى ذلك ألا وهي جواهره التي لا تعد ولا تُحصى.

أخذوا كل شيء، استولوا على كل شيء، كل شيءٍ انتزعوه كما لو أنه ملكهم، حازوا كل شيءٍ كما لو أنه من نصيبهم. وبعد أن انتزعوا الذهب من كل الأشياء، بعد أن انتهوا من أخذه، جمعوا كل شيءٍ غيره، كوموه وسط الفناء الخلفي، في منتصف الفناء: كل الريش الناعم.

بهذه الطريقة عندما تم تجميع كل الذهب، أتت مالينتزين لتنادي، جاءت لاستدعاء كل النبلاء. صعدت إلى السطح، وعلى حافة الجدار وقفت ونادت:

أيها المكسيكيون تعالوا إلى هنا: إن الإسبان في ضيق. اجلبوا لهم طعاماً وماءً نقياً: كل ما هو ضروري. فإنهم في خَوَر، مرهقون، يكاد يُغمى عليهم من الإعياء. لماذا لا تريدون الاقتراب؟ تبدون حانقين.

لكن المكسيكيين بالمطلق لم يجرؤوا على الذهاب إلى هناك. كانوا خائفين جداً، سلبهم الفزع هِمَّتهم، وأدخل الذعر في قلوبهم. اعتراهم جميعا ذهولٌ كبير، غزا كيانهم . لم يعد أحدٌ يجرؤ على المجيء إلى هنا: كما لو أنّ وحشاً يقبع في انتظارهم، كما لو أن ليلاً بهيماً قد حل وادلهمّ.

لكن رغم ذلك، لم يتركوهم، لم يهجروهم فقد سلّموهم كل ما يحتاجون إليه، وإن بخوفٍ يسلمونه لهم. يأتون خائفين يرتعدون، يصلون ممتلئين خوفاً ويضعون الأشياء. لكن بعد أن يقتربوا يعودون إلى الخلف، ينسلّون مسرعين، يرجعون وهم يرتجفون.

شهادة ألفا إشتليلشوشيتل

وهكذا في يوم آخر (٨ تشرين الثاني ١٥١٩) خرج موكتيثوما مع ابن أخيه كاكاما وشقيقه كويتلاهوا، ومع جميع بلاطه لاستقبال كورتيس الذي كان في ذلك الحين في المكان المسمى اليوم سان أنطون، و بعد أن استقبله أنزله في بيوت أبيه الملك أشاياكا، وقدم له الكثير من العطايا، وأبدى استعداده ليصبح حليفاً للإمبراطور، واستقبال الشريعة الإنجيلية. وضعوا في خدمة الإسبان الكثير من الناس من تيتزكوكو ومكسيكو وتلاكوبان. وبعد أربعة أيامٍ صار الإسبان في مكسيكو مسرورين جداً، مخدومين ومكرمين بالهدايا..

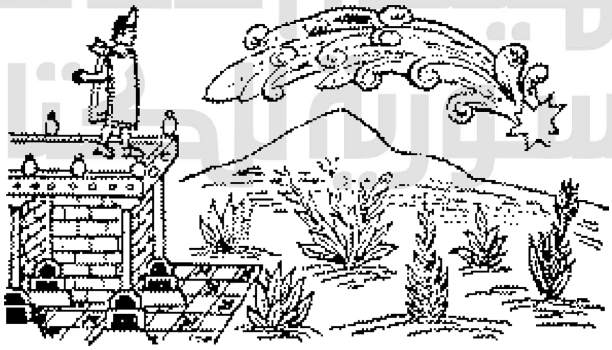

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل التاسع

مذبحة المعبد الكبير في عيد توشكاتل

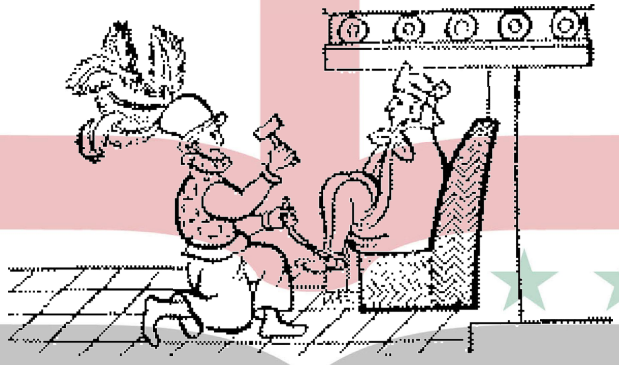

لما حط الإسبان رحالهم في مكسيكو- تينوشتيتلان تحول موكتيثوما عملياً إلى أسيرٍ لدى كورتيس. يشير كثيرٌ من النصوص الهندية مثل مخطوط راميرث و"الرواية ١٣" لـ إشتليلشوشيتل ومخطوط أوبين... إلخ، بطريقةٍ مباشرةٍ إلى المذبحة التي ارتكبها بيدرو دي ألفارادو خلال عيد توشكاتل، الذي كان يقيمه شعب الناهوا تشريفاً لإلههم "هويتزيلوبوشتلي".

كان إرنان كورتيس قد تغيب عن المدينة للذهاب لقتال بانفيلو دي نارفاييث الذي أتى للقبض على الفاتح بأمرٍ من دييغو فيلاثكيث، حاكم كوبا.

ارتكب ألفارادو – أو "الشمس" كما يدعوه المكسيكيون- المذبحة غيلةً وغدراً، عندما بلغت الحفلة أوجها.

هنا نقدم شهادتين محفوظتين بلغة الناهوا ترسمان بواقعيةٍ مشابهةٍ للقصائد الملحمية الكبرى من الحقبة الكلاسيكية، التفاصيل الأكثر دراماتيكيةً عن الغدر الذي حاكه ألفارادو.

أولاً لنقرأ شهادة أحد رواة ساهاغون، الذين يروون لنا تحضيرات الاحتفال، والطريقة التي يصنع بها المكسيكيون من بذور الكتان تمثال هويتزيلوبوشتلي، وفي النهاية كيف هجم الإسبان فجأةً في منتصف الحفلة وبشكل غادرٍ على المكسيكيين.

يحدثنا الرواة مباشرةً عن ردة فعل السكان الأصليين، والحصار الذي فرضوه على الإسبان في الدور الملكية التابعة لموكتيثوما. تكتمل اللوحة عندما يصل الخبر عن عودة كورتيس.

اتفق المكسيكيون "فيما بينهم على أن يتخفوا عن الأنظار، ويتواروا، ويختبئوا.. كما لو أن ليلاً بهيماً قد أرخى سدوله..."

بعد إيراد نص رواة ساهاغون، نورد أيضاً في هذا الفصل وصفاً وجيزاً للمذبحة التي وقعت في عيد توشكاتل، يقدمها لنا المؤلف الأزتيكي لـ "مخطوط أوبين". يتعلق الأمر بلوحةٍ صغيرة كتب عنها غاريباي مايأتي:

"من الناحية الأدبية، فإن هذا الأسلوب في رواية الأحداث يُغني كل أدب ، ومن خلاله نلمس معاناة شعب تينوشتيتلان أمام هجمة "الشمس" ألفارادو، الذي أسموه "جميل الوجه، قبيح القلب".

التحضيرات لعيد توشكاتل

بعد ذلك طلب (المكسيكيون) إقامة عيد هويتزيلوبوشتلي. وأراد الإسباني أن يرى كيف هو العيد، رغب في أن يشاهد ويرى طريقة الاحتفال.

إثرها أعطى موكتيثوما أمراً: دخل بعضهم بيت القائد، ذهبوا ليقدموا له الطلب.

وعندما أتى الإذن إلى حيث موكتيثوما محبوس، بدأت النسوة في طحن بذور عشبة الخشخاش الشائك وهن اللواتي أمضين السنة كلها صائمات، وهذا قمن به هناك في فناء المعبد.

خرج الإسبان، وهم في كامل سلاح الحرب، متزينين، ومسلحين. يمرون عبر النسوة، يقفون إلى جانبهنّ، يحيطون بهنّ، ينظرون إليهنّ واحدةً تلو الأخرى، يتفحصون وجوه اللواتي يطحن. وبعد أن أمعنوا النظر بهن، إثرها دخلوا البيت الملكي الكبير: وقد عُرف لاحقاً أنه من تلك اللحظة كانوا يبيتون النية لقتل الناس، عندما يظهر هنالك الرجال.

يصنعون تمثال هويتزيلوبوشتلي

وعندما أتى موعد عيد توشكاتل، ومالت شمس النهار، بدؤوا بعمل الجسم، بصنع جسدٍ بشري لهويتزيلوبوشتلي، بهيئةٍ بشريةٍ وبكل ملامح الإنسان.

وهذا يصنعونه على هيئة جسمٍ بشري من بذور الكتان: من صنف نباتٍ محليّ.

يضعونه على هيكلٍ من العصي ويثبتونه بوساطة شوكٍ، ويسمِّرونه لكي يثبت في مكانه. بعد أن أتموا تشكيله بهذه الهيئة، وضعوا له الريش وعملوا له في وجهه بهاءه الخاص، أي أشعة تخترق وجهه قرب العيون.

وضعوا له أذنين من موزاييك التركواز الأزرق، على هيئة ثعابين، ومن أذنيه المصنوعتين من حجرالتركواز يتدلى قرطٌ شوكيُّ الشكل. إنه من الذهب على شكل أصابع القدم، مصنوعٌ على هيئة أصابع القدم.

شعار الأنف مصنوعٌ من الذهب، مع حجارةٍ كريمةٍ مغروسةٍ، على هيئة حلقٍ من الشوك، وله أشعةٌ مائلةٌ بلونين: الأزرق والأصفر.

وضعوا على رأسه الزينة السحرية من ريش الطيور الملونة. ثم ثبتوا له رأس الوحش. إنه من الريش الراقي على شكلٍ أسطوانيّ، لكنه باتجاه الأعلى يضيق ويصبح مخروطياً.

بعد ذلك وضعوا على عنقه زينةً من ريش الببغاء الأصفر، الذي تتدلى منه ذؤابةٌ متدرجةٌ تشبه خصلات الشعر التي يحملها الأولاد. أيضاً رداؤه على شكل أوراق القريص، بصباغٍ أسود: في خمسة مواضع فيه خصلات ريش نسورٍ ناعم. يلفونه كله أيضاً بردائه السفلي، مرسومٌ عليه جماجم وعظامٌ.

ومن الأعلى يُلبسونه سترته، وهذه مرسومٌ عليها أعضاء بشرية مقطعة: كله مرسوم عليه جماجم، آذان، قلوب، أحشاء، أقفاص صدرية، أيدٍ وأقدام. أيضاً سترة الوسط. هذه ثمينةٌ جداً وزينتها أيضاً من أعضاءٍ مفصولةٍ، وزناره من الورق الخالص أي من ورق أحد أصناف الشجر، بعرض ربع وبطول عشرين، مرسومٌ عليه أشعة عمودية ذات لون أزرق

فاتح. على ظهره ثُبِّتَ علمٌ بلون الدم. هذا العلم الذي بلون الدم هو من الورق الخالص، مصبوغ بالأحمر، كما لو أنه غمس في الدم. عليه حجر صوانٍ لذبح الأضاحي البشرية فوق التاج، وهذا التاج مصنوعٌ من الورق النقي.

أيضاً هو مخططٌ بالأحمر بلون الدم. يحمل ترسه: منسوجٌ من الخيزران. من أربع جهاتٍ مزينٌ بخصلةٍ من ريش النسر الناعم: له ذوائب من الريش الثمين. وعلم الترس أيضاً مدهونٌ بلون الدم، مثل علم الظَّهر. له أربعة سهام متحدة بالترس. هنالك حزامٌ لمعصمه من الجلد الناعم، ومنه تتدلى أوراقٌ قصيرةٌ مقصوصة.

يبدأ الاحتفال

عندما أتى صباح العيد، كَشَفَ وجه (التمثال) باكراً جداً، من نذر نفسه لذلك. وقفوا في صفٍّ أمام الإله، بدؤوا بتبخيره، وأمامه وضعوا كل صنفٍ من الهدايا: طعام الصوم (أو ربما طعاماً من لحمٍ بشري) ودوائر من بذور السلق المهروسة.

الأمور تجري كذلك، وهم لم يحملوه بعد، لم يُصعدوه بعد إلى هرمه.

وكل الرجال والمحاربين الشباب، كانوا مستعدين بالكامل، بكل همةٍ سوف يحتفلون بالعيد، ويحيونه، وذلك كي يرى الإسبان ذلك ويندهشوا ولوضعهم في صورة الحال. يبدأ المسير، إنه السباق: كلهم يمضون باتجاه فناء المعبد لكي يرقصوا هناك رقصة التلوي (مثل ثعبان الكوبرا).

ولَّما اجتمع كل الناس، ابتدأ الحفل، شرعوا بالغناء ورقصة الكوبرا.

والذين صاموا عشرينيةً والذين صاموا سنةً كانوا يتقدمون الناس:

يُلزمون الناس البقاء صفاً بوساطة عصيّ الصنوبر. ومن يريد الخروج يهددونه بعصاهم الصنوبرية. وإذا ما رغب أحدٌ ما في التبول فإنه يخلع الثوب الذي على وسطه والمزين بريش مالك الحزين. لكن الذي يُظهر عدم الطاعة، الذي لا يتبع الناس في ترتيبهم المعهود، ويأخذ الأمور باستهتار، فإنهم بسبب ذلك يضربونه على مؤخرته، يضربونه على ركبتيه، يضربونه على كتفه. ويلقون به خارج المكان، وبعنفٍ يرمونه، يدفعونه بقوةٍ لدرجة أنه يسقط على أربع، ويرتطم وجهه بالأرض، يشدونه بقوةٍ من أذنيه: وما من أحدٍ ينبس بكلمة. كانوا محل تبجيل أولئك الذي صاموا لسنةٍ، لهم مهابةٌ ووقار، يحملون اللقب الخاص: "أشقاء هويتزيلوبوشتلي".

حسناً الآن يمضون في مقدمة الرقص ويقود الناس الضباط الكبار، الشجعان الصناديد. يليهم مباشرةً الشبان الأصغر سناً، لكن دون الالتصاق بأولئك. الذين يحملون الذؤابة التي تميز من قام بتقديم أضحيةٍ بشرية، وهم ذوو الذَّوائب، والذين يلبسون على هيئة الجرار: الذين قاموا بالإمساك بأسرى بمساعدة الغير. أيضاً الشبان الصغار أو من يُسمّون بالمحاربين الشباب، الذين سبق أن أسروا أحداً، الذين قاموا بأسر واحد أو اثنين من الأعداء، أيضاً يطوقونهم. يقولون لهم:

- انطلقوا إلى هناك يا أصدقائي، أظهروا شجاعتكم للناس، فشجاعتكم بادية!

الإسبان يهاجمون المكسيكيين

بينما الأمور كذلك وبينما الناس يستمتعون بالحفلة... هاهو الرقص، هاهو الغناء، وتتصل الأهازيج بعضها ببعض، والأغاني كهدير الأمواج، في هذه اللحظة بالذات يقرر الإسبان قتل الناس، ومن ثم يأتون إلى هنا بسلاح الحرب.

أتوا لإغلاق المخارج والمداخل: مدخل النسر، في القصر الصغير، مدخل رأس القصبة، مدخل أفعى المرايا. وبعد أن أغلقوها تمركزوا فيها كلها: لم يعد بإمكان أحدٍ الخروج.

عندما أتموا فعل ذلك، في الحال يدخلون الفناء المقدس لقتل الناس. يمشون على الأقدام، يحملون تروسهم الخشبية، وبعضهم يحمل تروساً معدنيةً وسيوفاً.

في الحال يحاصرون الراقصين، يهجمون على مكان الطبول: سددوا ضربةً للذي يعزف: قطعوا كلتا ذراعيه. بعد ذلك أطاحوا برأسه: بعيداً راح ليسقطَ رأسه المقطوع.

في الحال يبدأ جميع (الإسبان) باستخدام السلاح، يطعنون الناس، يضربونهم بالسواطير، وبالسيوف يجرحونهم. بعضهم هاجموهم من الخلف، في الحال تسقط على الأرض أحشاؤهم مشتتةً. آخرون هشموا لهم رؤوسهم: قطعوا لهم رؤوسهم، أو فتتوا رؤوسهم قطعاً.

لكنَّ آخرون ضربوهم بالسيوف على الأعناق: تصدعوا وتمزقت أجسامهم. آخرين يجرحونهم في أفخاذهم، وهؤلاء في بطون أفخاذهم،

والذين هم أبعد قليلاً يطعنونهم في وسط بطونهم. كل الأحشاء تسقط أرضاً. ووُجد بعضهم رغم ذلك يركض عبثاً: يجرجرون أمعاءهم وتعلق أرجلهم بها. باحثين عن ملاذٍ للنجاة لا يجدون! إلى أين يتجهون؟.

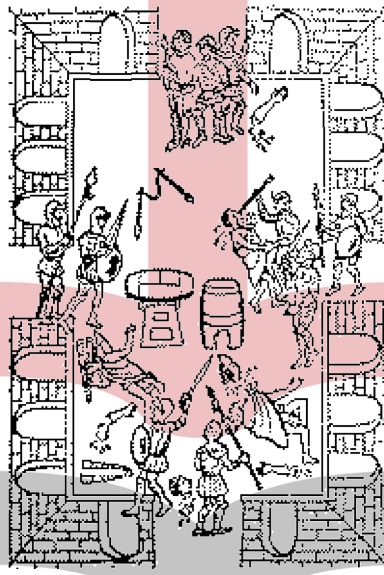

مذبحة المعبد الكبير (مخطوط فلورنتينو)

يحاول بعضهم الخروج: لكن هناك في المدخل جرحوهم، وطعنوهم. آخرون تسلقوا الجدران، لكن لم يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم. آخرون دخلوا إلى الدار العامة: هناك نعم صاروا في مأمن. آخرون حشروا أنفسهم بين القتلى، تصنعوا الموت من أجل النجاة. متماثلين بالموت نجوا. لكن إذا ما وقف أحدٌ منهم على قدميه فحينئذٍ يتنبهوا له ويضربونه بالسيف. دماء المحاربين تجري كالمياه: تتجمع في بركٍ ورائحة الدم تعلو في الهواء، وأيضاً رائحة الأحشاء التي تبدو وكأنها تزحف وتترجرج.

الإسبان يمضون في كل اتجاهٍ باحثين عن بيوت العامة: بلا تمييزٍ يطعنون ويبحثون عن أشياء: لربما كان أحدٌ مختبئاً هناك، في كل مكانٍ جاسوا، فتشوا كل شيء. والدور العامة فتشوا كل ركنٍ فيها.

ردة فعل المكسيكيين

وعندما سرى الخبر خارجاً، علا الصياح:

أيها القادة المكسيكيون تعالوا إلى هنا. ليأت الجميع مسلحين: شاراتكم وتروسكم وسهامكم! تعالوا إلى هنا بسرعةٍ، اركضوا: لقد قُتل الضباط، ومات محاربونا... لقد تمت إبادتهم أيها القادة المكسيكيون.

عندها سُمع الهدير، علا الصياح واستهجان الناس وهم يضربون على شفاههم. في الحال احتشد المحاربون وجميع القادة، كما لو أنهم على موعد: يحملون سهامهم وتروسهم.

إذ ذاك تبدأ المعركة: يرمون بالحراب، بالأقواس وحتى بالرماح وبرماح صيد الطيور. بغضبٍ وسرعةٍ يرمون حرابهم وكطبقةٍ متصلة تنتشر كلها فوق الإسبان.

الإسبان يلتجؤون إلى الدور الملكية

من جانبهم الإسبان في الحال تمترسوا (في الأبنية). وهم أيضاً بدؤوا بإطلاق السهام على المكسيكيين، إنها سهامٌ حديديةٌ نفاذة. وأيضاً يطلقون المدفع والبندقية. في الحال قيدوا موكتيثوما بالأصفاد. من جهةٍ أخرى يتم إخراج القادة المكسيكيين واحداً تلو الآخر، من الذين هلكوا في المذبحة. يقومون بحملهم وإخراجهم والتحري عنهم للتعرف على هويتهم.

النحيب على القتلى

وآباء وأمهات العائلات أطلقوا العنان للعويل والبكاء.

ناحوا وتنحبوا على الأموات. كل واحدٍ يأخذونه إلى بيته، لكن بعد ذلك يجلبونهم إلى "الفناء المقدس": هناك جمعوا القتلى، هناك جميعهم تم حرقهم، في مكانٍ محدد يسمى كواوشيكالكو (فرن النسر). لكن آخرين أحرقوا جثثهم حصراً في "دار الشباب."

رسالة موكتيثوما

وعندما أوشكت الشمس أنْ تغيب، عندما لم يبق إلا قليلٌ من ضوء النهار، أتى المنادي إتزكواوتزين، من أعلى السطح صرخ قائلاً:

- أيها المكسيكيون، والتينوشكيون والتلاتيلولكيون: يتحدث إليكم ملككم السيد موكتيثوما: يرسل إليكم بالقول: فليصغ إليه المكسيكيون:

- الحقيقة أننا لسنا أنداداً لهم، لاتقاتلوا أيها المكسيكيون. فليُترك بسلامٍ الترس والسهم. إن من سيعاني هم كبار السن من الشيوخ والعجائز الضعفاء المثيرين للشفقة، والشعب من الطبقة الدنيا. وأيضاً الذين لايعون شيئاً بعد: الذين لايكادون يحاولون الوقوف على أقدامهم، الذين ما زالوا يَحبُون. الذين هم في المهد وفي سريرهم الخشبي: الذين لا يدركون شيئاً بعد.

لهذا السبب يقول لكم ملككم :

- "إننا لسنا أكفاءً لمجابهتهم، فليُترك القتال." هو (موكتيثوما) أثقلوه بالحديد ووضعوا أغلالاً في قدميه.

عندما انتهى إتزكواوتزين من الكلام أجابوه بزعيقٍ يصم الآذان، كلموه غاضبين. استشاط المكسيكيون غضباً، مغتاظين وممتلئين حنقاً قالوا له:

- ما الذي يقوله هذا التعيس موكتيثوما؟ لم نعد رعاياه البتة!

بعدها يرتفع الهدير الحربي، راح يزداد بسرعةٍ الهياج الحربي. وأيضاً سقطت فوراً سهامٌ على السطح. في الحال حمى الإسبان بتروسهم موكتيثوما وإتزكواوتزين، لئلا تصيبهم سهام المكسيكيين.

السبب الذي لأجله استشاط المكسيكيون غضباً هو قتل جنودهم، بدون أن ينتبهوا حتى للهجوم عليهم، وقتل ضباطهم غيلةً وغدراً. لذلك الآن لا يريدون العودة أو التراجع أبداً.

المكسيكيون يحاصرون الإسبان

تمت محاصرتهم في الدار الملكية، شددوا المراقبة لئلا يدخل أحدٌ خلسةً، ويجلب لهم الطعام سراً. أيضاً بالطبع انتهى كل شكلٍ من أشكال تقديم المؤن: ما من شيءٍ بالمطلق يُسلَّم لهم، كمن يريد قتلهم جوعاً.

أما أولئك الذين يحاولون عبثاً الاتصال بهم، أو تنبيههم على شيء، أو يحاولون التقرب إليهم بإعطائهم سراً بعض الأغذية، إذا ما تمت رؤيتهم أو اكتشاف أمرهم فإنهم يقتلونهم في الحال أو يقضون عليهم أو يكسرون أعناقهم، أو يقتلونهم رجماً بالحجارة.

ذات مرةٍ تمت رؤية بعض المكسيكيين يُدخلون جلودَ أرانب. هم زلقوا بالكلام بأنه يدخل معهم أشخاصٌ آخرون خلسةً. لذلك تم إصدار أمرٍ مكتوب بأن تتم المراقبة، وأن تحرس بعناية كل الطرقات وكل الأقنية.

حصلت مراقبةٌ شاملةٌ من قبل حراسٍ متيقظين. بالمناسبة فإن الذين كانوا يُدخلون جلود أرانب هم عمالٌ مرسلون من قبل رؤساء سكان إيوتزينتيبيك وشينانتلان. هناك ببساطةٍ لفظوا أنفاسهم، هناك انتهت مهمتهم: في قناة أغرقوهم بوساطة ملاقط خشبية كبيرة.

حتى على بعضهم البعض يهجم التينوشكيون: بدون أي سببٍ يأسرون العمال. يقولون: - "هذا هو" ومن ثم يقتلونه. وإذا ما صادف أنْ رأوا أحداً يحمل إناءه الزجاجي، فعندها يمسكون به بسرعةٍ ويقتلونه قائلين:

- هذا هو الذي يدخل، الذي يجلب طعاماً لموكتيثوما.

وإذا ما رأوا أحداً يلبس زي العمال، أيضاً يأخذونه بسرعةٍ قائلين:

- أيضاً هذا رجلٌ تعس، ينقل معلومات: يدخل لرؤية موكتيثوما.

والذي يحاول عبثاً إنقاذ نفسه، يتوسل إليهم قائلاً:

- ما الذي تفعلونه أيها المكسيكيون؟ لست أنا! لكن هم يقولون له:

- أجل أنت أيها التعيس! ألست خادماً؟ وفي الحال يقتلونه.

بهذه الطريقة كانوا يفتشون الأشخاص، وهم حذرون من الجميع: يتفحصون وجوههم ومهنهم: لم يكن من عملٍ لدى المكسيكيين سوى مراقبة الأشخاص.

والكثيرون أعدموهم للشبهة، ظلماً قتلوهم: وهؤلاء دفعوا ثمن جريمةٍ لم يرتكبوها.

لذلك بقية العمال تخفوا، اختبؤُوا. لم يعودوا يظهرون للناس، لا يحضرون أمام الناس، لم يعودوا يذهبون إلى بيت أحد: كانوا خائفين جداً، الخوف والعار يستولي عليهم، ولا يريدون الوقوع بأيدي الآخرين.

عندما حصروا الإسبان في الدور الملكية، على مدار سبعة أيامٍ ظلوا يقاتلونهم. وحيَّدوهم طوال ثلاثة وعشرين يوماً. خلال هذه الأيام تم تعزيل الأقنية، تم فتحها، وتوسعتها، وغُرست فيها أخشاب، وزادوا من عمقها. وهكذا صار من الصعب المرور بسهولة في كل الاتجاهات، تم وضع عوائق داخل الأقنية. وفيما يخص الطرقات، وضعوا فيها عوائق أيضاً، نصبوا جدراناً معيقةً، أُغلقت الطرقات. كل الطرقات والشوارع تم نصب عوائق فيها.

رواية المذبحة حسب مخطوط أوبين

في عيد توشكاتل صعدوا إلى فوق إلى حيث تمثال الإله. قتلوا المنشدين عندما بدأ الرقص. لما رأى موكتيثوما ذلك قال لمالينتزين:

- من فضلك أيها الإله كورتيس اسمعني: حان موعد عيد إلهنا: هو من الآن لغاية عشرة أيامٍ. عسى يمكننا إصعاده. سيكون هناك تطييب بالبخور، وفقط سنرقص عندما يتم إصعاد أقراص الخبز. ربما يحدث القليل من الضجيج، لكن هذا كل شيء.

عند ذلك أجابه القائد:

- حسناً. فليقوموا بذلك. قد أجبتكم إليه.

لكن إثر ذلك رحلوا، ذهبوا للقاء إسبانٍ آخرين وصلوا (إلى شاطئ البحر). فقط "الشمس" (ألفارادو) بقي هناك.

ولَّما حل الموعد وفق حساب الأيام، قال موكتيثوما لهذا:

- من فضلكم الإنصات: أنتم موجودون هنا. قريباً يحل عيد الإله، اقترب العيد الذي يجب أن نحتفل فيه بإلهنا.

أجابه ذلك:

فليقوموا بذلك: لن نمكث هنا بعد الآن!

بعدها قال القادة:

- من فضلكم استدعوا إخوتنا الكبار:

وتكلم الأخوة الكبار:

عندما وصل هؤلاء، حينئذٍ يعطونهم أوامر، يقولون لهم:

- فليتم تركيز الجهد على ذلك كي يتم بنجاح.

وأيضاً أمر الأخوة الكبار:

- فليتم ذلك بهمةٍ عالية.

عندئذٍ قال تيكاتزين رئيس مستودع السلاح:

- من فضلكم أَعلِموا السيد الذي هو بيننا أنه هكذا حدث في شولولا: ببساطةٍ حصروهم في منزل!. أيضاً الآن نحن قد صُعّبت علينا الأمور. في كل جدارٍ فلنخبئ تروسنا!

إذ ذاك قال موكتيثوما:

هل نحن في حرب؟ ليكن هنالك ثقة!

عند ذلك قال قائد السلاح:

- حسناً.

من ثم يبدأ الغناء والرقص. يقود الحفل ضابطٌ شاب، يضع قناع الوجه: اسمه كواتلازول وهو من تولناهواك. ما إن بدأ الغناء حتى شرع

الإسبان يخرجون الواحد تلو الآخر، يمرون بين الناس، ومن ثم أربعةً أربعةً توزعوا على المداخل. حينها ضربوا الذي يقود الرقص. إسبانيٌّ آخر سدد ضربةً على أنف تمثال الإله. عندئذٍ يصفعون الذين يدقون الطبول. اثنان كانا يدقان الطبل الصغير، وواحدٌ من أتيمبان كان يضرب الطبل الكبير. عند ذلك عمت الفوضى، ووقعت الكارثة.

في هذه اللحظة أتى كاهنٌ من المعبد الكبير مسرعاً وهو يصرخ قائلاً بصوتٍ عالٍ:

- أيها المكسيكيون أليست هذه حرباً؟ من سيثق بعد الآن! أين الشجعان ذوو النخوة!

إذ ذاك يهاجمون فقط بعصي الصنوبر. لكن ما إن ينتبهوا حتى يجدوا أنفسهم وقد مزقتهم السيوف إرباً. بعد ذلك انكفأ الإسبان إلى البيوت التي يقيمون فيها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل العاشر

عودة كورتيس: الليلة الحزينة

لما تغلب كورتيس على بانفيلو دي نارفاييث عاد مع عددٍ أكبر من الجنود إلى مكسيكو-تينوشتيتلان. رواة ساهاغون يروون الطريقة التي تم بها استقباله. المكسيكيون اتفقوا فيما بينهم على عدم الظهور. كانوا متأهبين لبدء المعركة.

حسب الرواة فإن كورتيس أمر بإطلاق المدافع لدى الدخول في الدور الملكية التابعة لموكتيثوما. هذه كانت إشارة البدء بالحرب. خلال أربعة أيامٍ حصل قتالٌ عنيف.

في ذلك الحين رمى الإسبان على ضفة الماء جثامين موكتيثوما وإتزاكواتزين. كما يكتب السيد فرناندو دي ألفا إشتليلشوشيتل، لم تُعرف بالضبط الكيفية التي مات بها موكتيثوما: "يقال إن أحد الهنود رماه بحجرٍ ومنه مات، لكن الحلفاء يقولون إن الإسبان أنفسهم قتلوه ومن أسفل استه غرسوا السيف في أحشائه.

النص الهندي يرسم جنازة موكتيثوما والحكم القاسي على أدائه الذي أطلقه بعض المكسيكيين. بعد مضي سبعة أيامٍ استعد (الإسبان) لمغادرة مكسيكو - تينوشتيتلان ليلاً.

عندئذٍ حصل انتقام المحاربين المكسيكيين، في ليلةٍ تعرف بالليلة الحزينة. الناهوا يرسمون لنا الطريقة التي حصل بها حصار الإسبان الهاربين عبر شارع تاكوبا.

الذين تمكنوا من الهرب ذهبوا للالتجاء باتجاه تيوكالهوياكان، إذ تم استقبالهم بشكلٍ سلمي.

نص الرواة الذي نورده هنا يقص في ختامه ما كان يحصل حينها في مكسيكو– تينوشتيتلان، إذ المحاربون المكسيكيون المنتصرون يقتسمون غنائم الحرب التي استلبوها من الإسبان.

الإسبان يغادرون المدينة ليلاً

لَّما حل الظلام، وجاءَ منتصف الليل خرج الإسبان في تشكيلٍ مرصوصٍ، وأيضاً قوات تلاكسكالا جميعها. الإسبان يسيرون في الأمام

ويردفهم جند تلاكسكالا ملتصقين بظهورهم. كما لو كانوا سوراً يلتصقون بأولئك. يحملون معهم جسوراً متحركةً من الخشب: راحوا يضعونها على القنوات: وعليها يعبرون. في ذلك الظرف، كانت السماء تمطر مطراً ناعماً مثل الندى، على هيئة قطراتٍ خفيفةٍ، كمن يرش رذاذاً، هطل مطرٌ دقيقٌ جداً.

لقد تمكنوا من عبور قنوات تيكبانتزينكو وتزابوتلان وأتينشيكالكو. لكن عندما وصلوا إلى القناة الرابعة في الترتيب تم رصدهم: إنهم يخرجون.

اكتشاف أمر هروبهم

امرأةٌ كانت تستقي من الماء رأتهم وفي الحال صرخت بأعلى صوتها قائلةً:

- أيها المكسيكيون... أسرعوا إلى هنا: إنهم يذهبون، أعداؤكم يعبرون القنوات!... يمضون خلسةً!...

إذ ذاك صرخ رجلٌ من أعلى معبد هويتزيلوبوشتلي. وانتشرت صيحته بين الناس، الجميع سمع صراخه:

- أيها المحاربون، الضباط، المكسيكيون... أعداؤكم يذهبون! تعالوا لملاحقتهم. بقوارب محميةٍ بالتروس... بكل العسكر في الطريق.

تبدأ المعركة وينشب القتال

وعندما سُمِعَ ذلك، علا اللغط، وتباعاً انتشر في ترتيبٍ قتاليٍّ الذين معهم سفنٌ محميةٌ بالتروس. يتابعون ويجدفون بحماس، يضربون

قواربهم، يقومون بتجديفاتٍ قويةٍ لزوراقهم. يتجهون إلى ميكتلانتونكو، في اتجاه ماكوتلابيلكو. وأما القوارب المحمية بالتروس فمن جهةٍ وأخرى تأتي للقائهم، لتهجمَ عليهم. هي قواربُ حراسة تينوشتيتلان، وقواربُ حراسة تلاتيلولكو. آخرون أيضاً ذهبوا سيراً على الأقدام، اتجهوا مباشرةً إلى نونوهوالكو، في الطريق إلى تلاكوبان. يحاولون قطع خط الانسحاب عليهم.

عندئذٍ الذين يقودون القوارب المحمية بالتروس، أطلقوا السهام على الإسبان. من جهةٍ وأخرى تسقط السهام. لكن الإسبان أيضاً راحوا يرمون على المكسيكيين. يطلقون سهاماً حديديةً، وأيضاً طلقات بندقية. من جانبٍ وآخر يسقط قتلى. السهام تصيب الإسبان وأيضاً تصيب قوات تلاكسكالا.

مذبحة قناة التولتيك

عندما وصل الإسبان إلى تلالتيكايوهواكان حيث توجد قناة التولتيك، فكأنهم انهاروا، كما لو أنهم من أعلى تلٍ سقطوا. كلهم هووا هنالك، انزلقوا رغماً عنهم. أي جند تلاكسكالا، وجند تليليوكيتيبيك، والإسبان والذين يمتطون الخيول وبعض النسوة. سريعاً امتلأت القناة بهم، وارتدمت من جثثهم. والذين كانوا خلفهم عبروا فوق الرجال، على الأجساد، وخرجوا إلى الضفة الأخرى. ولما وصلوا إلى بيتلاكالكو حيث توجد قناةٌ أخرى، عبروها بسلامٍ وهدوءٍ على الجسر الخشبي المتحرك.

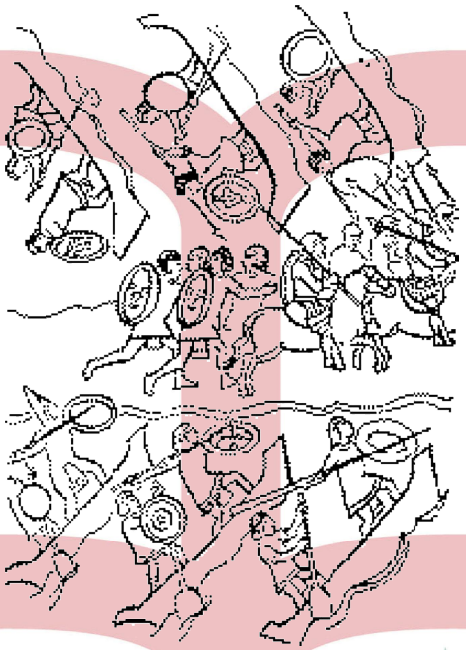

هروب الإسبان و خروجهم عبر شارع تاكوبا

هنالك أخذوا استراحةً، هنالك التقطوا أنفاسهم، هنالك أحسوا أنهم بشر. ولَّما وصلوا إلى بوبوتلا أصبح الصباح ووضحت السماء: هناك وهم يعانون البرد أيضاً حصل قتال. المكسيكيون وصلوا إلى هناك وهم يطلقون صيحات الحرب، وأحاطوا بهم. أوقعوا أسرى من أهل تلاكسكالا، وأيضاً قتلوا بعض الإسبان. لكن أيضاً قُتل مكسيكيون: أناسٌ من تلاتيلولكو. من جانبٍ وآخر حصل قتلى. حتى تلاكوبان (تاكوبا) لاحقوهم، إلى تلاكوبان طردوهم.

في الوقت الذي طردوهم فيه، مات في الحرب شيمالبوبوكا ابن موكتيثوما. نفذ منه سهمٌ حديديٌ، أصابته رمية قوس. أيضاً هناك جُرح وفي المكان نفسه مات تلالتيكاتزين، أمير تيبان. وهو الذي كان يرشد، ويقود، ويشير ويدل الإسبان على الطرقات الموصلة لمبتغاهم.

الإسبان يلتجؤون إلى تيوكالوياكان

بعد ذلك خاضوا مياه تيبزولاتل، وهو نهرٌ صغير، عبروا إلى الضفة الأخرى... ذهبوا للتوقف في أوتونكالبولكو. فناؤُهُ محميٌّ بسورٍ من الخشب. هناك انتعشوا، هناك أخذوا قسطاً من الراحة، هناك استعادوا قواهم والتقطوا أنفاسهم.

الغنائم التي جمعها المكسيكيون في تينوشتيتلان

بعد ذلك انبلج ضوء السحر، وعندما لاح النور، وأضاء الصباح، تم أخذ أهل تلاكسكالا جميعاً، وأهل ثيوبوالا والإسبان الذين سقطوا في قناة التولتيك. تم نقلهم بالقوارب، بين عيدان الزلِّ (الخيزران)، إلى هناك حيث الخيزران الأبيض ذهبوا لإلقائهم: رموهم بكل استخفاف، وبقوا ممددين هناك. أيضاً ألقوا هنالك النسوة (الميتات): كُنَّ عرايا بالكامل، صفراوات الجسم، شاحبات، مصبوغات بالصفرة. جميع (الغرقى) تمت تعريتهم، انتزعوا منهم كل شيء: رموهم هناك بلا اكتراث، تركوهم مهجورين ومسلوبين بالكامل.

لكن بالنسبة للإسبان فقد وضعوهم في مكانٍ جانباً، رتبوهم في صفوف. مثل براعم القصب البيضاء، مثل براعم بعض النباتات، مثل سنابل القصب البيضاء، هكذا بيضاً كانت أجسامهم. أيضاً أخرجوا الـ "غزلان" التي تحمل على ظهورها الرجال: تلك المسماة خيولاً.

وكل ما يحملونه، كل أمتعتهم، تم تجميعها في كومةٍ، واستولوا على كلّ شيء. عندما تلمح عين أحدهم شيئاً ما ففي الحال ينتزعه. يحوزه له،

يحمله على ظهره، يسير به إلى بيته. هناك حيث حصل الهلاك فإنَّ كل ما تمكنوا من العثور عليه استولوا عليه، أي ما تركه الإسبان عندما فرّوا مذعورين.

أيضاً كل سلاح الحرب تم تجميعه هناك. جمعوا مدافع وبنادق وسيوفاً وكل ما قد هوى سابقاً إلى القاع، كل ما سقط هناك: بنادق، وسيوفاً، ورماحاً، وسروجاً، وأقواساً معدنيةً، وسهاماً حديدية. أيضاً هناك غنموا خوذاً من الحديد، ودروعاً منسوجةً من الحديد، وتروساً جلدية، تروساً معدنية، وتروساً من الخشب. وهناك تم العثور على سبائك ذهبيةٍ، وأقراصٍ من الذهب، وذهبٍ على شكل مسحوقٍ وعقودِ الفيروز التي فيها جواهر ذهبيةٌ. كل هذا تم إخراجه، تم انتشاله من الماء، يُستقصى عنه بحرصٍ. بعضهم يبحث بيديه، آخرون يبحثون بأقدامهم. يُشار إلى أن الذين كانوا في المقدمة نجوا تماماً، لكن السائرين خلفهم سقطوا جميعاً في الماء.

رواية ألفا إشتليلشوشيتل

كورتيس قفل عائداً إلى مكسيكو، ودخل عبر مدينة تيتزكوكو، حيث استقبله بعض الفرسان، لأن أبناء الملك نازاهوالبيلزينتلي الشرعيين قد خبأهم أتباعهم، وأما الآخرون فقد كانوا رهائن في مكسيكو. دخل كورتيس مكسيكو مع كل جيش الإسبان وحلفائهم من تلاكسكالا ومناطق أخرى في يوم القديس يوحنا المعمدان دون أن يعكر صفوهم أحد.

أهل مكسيكو والآخرون يقدمون لهم كل ما هو ضروريّ، لكن لما رأوا أن الإسبان لا ينوون مغادرة مدينتهم ولا إطلاق سراح ملوكهم جمعوا جندهم وبدؤوا بحربهم في اليوم التالي لدخول كورتيس مكسيكو ودامت المعارك سبعة أيام.

من جهته موكتيثوما لما رأى إصرار رعيته، صعد إلى مكانٍ مرتفعٍ ووبخهم، لكنهم وجهوا له كلماتٍ نابيةً ونعتوه بـ "الجبان" و"عدو الوطن" وحتى هددوه بالسلاح، إذ يقال إن أحدهم رماه بحجرٍ ومنه مات، لكن حاشيته يقولون إن الإسبان أنفسهم قتلوه، ومن أسفل جسده غرسوا السيف فيه.

بعد سبعة أيامٍ بعد أن حدثت أمورٌ جسامٌ، فإنّ الإسبان مع أصدقائهم أهل تلاكسكالا وأقوامٍ آخرين هجروا المدينة وخرجوا هاربين عبر الشارع الذي يؤدي إلى تلاكوبان، وقبل خروجهم من المدينة قتلوا الملك كاكاماتزين وثلاث شقيقاتٍ له، وشقيقين كانا لا يزالان على قيد الحياة حتى حينه، حسب السيد ألونسو أشاياكاتل وبعض روايات أهل البلد الذين تصادف وجودهم شخصياً في هاتين المناسبتين، والذين في الوقت الذي انسحبوا فيه قتلوا الكثير من الإسبان وحلفائهم لما طاردوهم حتى مكانٍ مرتفعٍ يقع أمام تلاكوبان، ومن هناك عادوا إلى تلاكسكالا.

هناك ذهب لاستقبالهم زعيم تيوكالهوياكان. الذي كان يحمل لقباً نبيلاً من درجة أوتومي. ذهب للقائهم ولكي يسلمهم طعاماً أيضاً: عجة بيضاء، دجاجاً، دجاجاً مسلوقاً أو مشوياً، بيضاً وبعض الدجاج الحي، وأيضاً كميةً من تين الصبار: كل ذلك وضعوه أمام القائد.

قالوا لهم:

- يا سادتنا لقد أتعبتم أنفسكم، ومررتم بشدائد. فلتسترح الآلهة. استقروا على الأرض، خذوا نفساً.

إذ ذاك أجابتهم مالينتزين بقولها:

- أيها السادة يقول القائد:

من أين أتيتم؟ أين يقع بلدكم؟

قالوا:

- سيدي: لقد أتينا من بلدك تيوكاهوياكان. إننا من ذلك المكان.

قالت مالينتزين:

- حسناً. نحن نشكركم. من حيث أتيتم فإننا غداً أو بعد غدٍ سوف نذهب للمبيت عندكم.

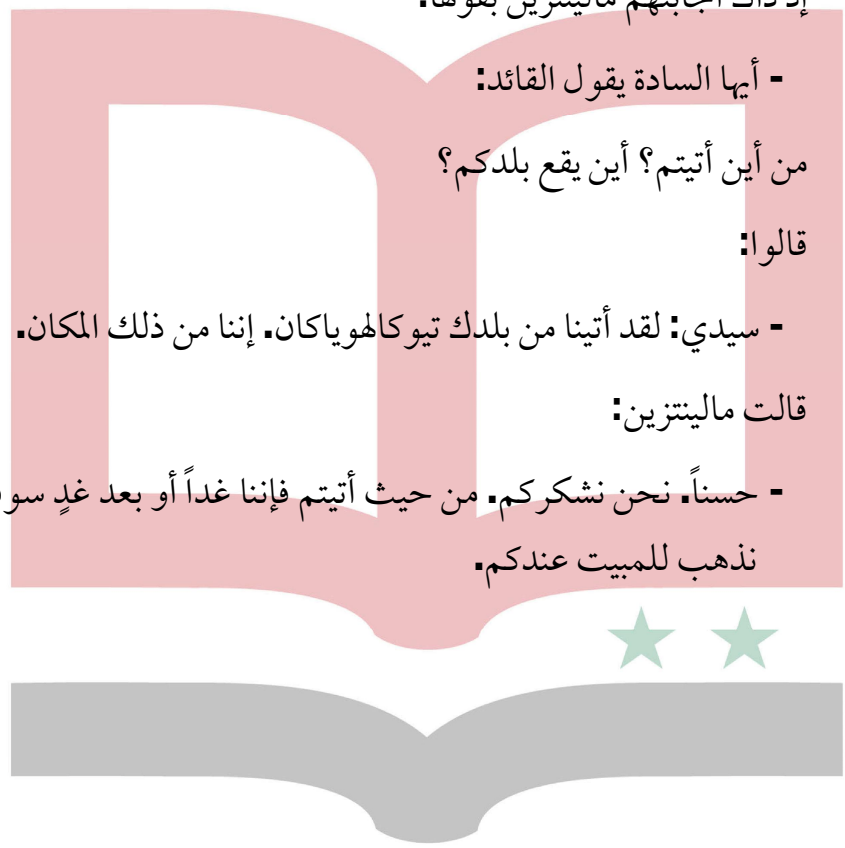

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الحادي عشر

بدء حصار مكسيكو- تينوشتيتلان

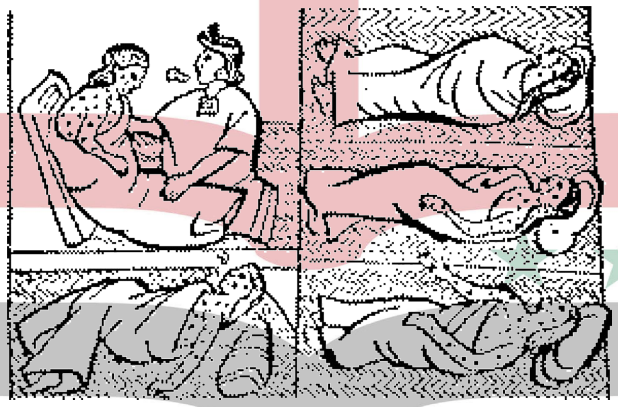

عديدةٌ هي شهادات السكان الأصليين التي تحكي لنا عن حصار العاصمة المكسيكية العظيمة. رمم الإسبان صفوفهم بفضل مساعدة حلفائهم من أهل تلاكسكالا، وعادوا للهجوم مجدداً وبكلّ وسيلةٍ على مكسيكو- تينوشتيتلان.

النص الذي نورده هنا، ويعود لرواة ساهاغون، يبدأ مُظهراً الاقتناع التامّ لدى المكسيكيين بأن الإسبان لن يعودوا مجدداً البتة. عاد المكسيكيون للاحتفال بالأعياد كعهدهم في الزمن الماضي. كويتلاهواك تم اختياره كملكٍ، لكي يخلف موكتيثوما الذي مات ميتةً مأساوية.

رغم ذلك فإن نذير الشؤم الأول أتاهم سريعاً فقد انتشر بين الناس وباءٌ كبير، وعلى العموم يُعتقد أنه كان وباء الجدري، وهو مرضٌ مجهولٌ حتى ذلك الحين عند سكان أمريكا الوسطى. أحد ضحايا هذه الجائحة هو الملك كويتلاهواك نفسه. إذ ذاك عاد الإسبان مجدداً للظهور من جهة تيتزكوكو، وتمركزوا في تلاكوبان.

الشهادة الأزتيكية تروي لنا تفاصيل كثيرةً عن الكيفية التي بدأ بها الإسبان بشن الهجمات عبر سفنهم الشراعية. النص الأزتيكي يتطرق إلى إنزال قوات كورتيس، وعن ردة الفعل الدفاعية لدى المكسيكيين، والطريقة التي راح يتوغل بها الإسبان في داخل المدينة. بسبب وطأة الحصار القاسي المفروض على الحاضرة الكبيرة، فإن التينوشكيين التجؤوا إلى تلاتيلولكو. هناك سوف يتركز القتال أخيراً.

النص الذي نورده هنا يختتم راسماً صورةً رائعةً لشخصية القائد المكسيكي تزيلاكاتزين، الذي هو أحد الذين لم يتراجعوا قط حين هاجمه الإسبان.

تصرف المكسيكيين بعد ذهاب الإسبان

لَّما ذهب الإسبان ظن الناس أنهم لن يعودوا مجدداً البتة، ولن يديروا وجوههم تجاه تلك الناحية. لذلك من جديدٍ فقد تم تزيين وتهيئة دار الإله. قاموا بكنسها جيداً، وأُخرجت النفايات كلها والأتربة. فالآن بداية الشهر السابع (من التقويم الأزتيكي) إذ يحل في بدايته عيد "إلهة الملح". مرةً

أخرى مجدداً احتفل به المكسيكيون في هذه العشرينية[1]. جميع الممثلين، جميع نواب الآلهة زينوهم مجدداً، وضعوا لهم ثيابهم وريش طائر الكيتزال. ألبسوهم أطواقهم وأقنعتهم من حجر التركواز الأزرق، وثبتوا عليهم ثيابهم الإلهية: إنها ثيابٌ من ريش الكيتزال، ثيابٌ من ريش الببغاء الأصفر، ثيابٌ من ريش النسور. كل هذه الثياب المطلوبة كانت محفوظةً عند كبار الأمراء...

الطاعون يضرب المكسيكيين

عندما خرج الإسبان من مكسيكو ولم يكونوا قد تجهزوا مجدداً ضدنا بعد، أولاً شاع بيننا وباءٌ عظيمٌ، جائحةٌ عامة. إذ بدأ ذلك في الشهر الثالث عشر (وقت أعياد آلهة الجبال). انتشر بيننا: مبيرٌ للناس. البعض غطتهم البثور في جميع أنحاء أجسادهم انتشرت في الوجه، في الرأس وعلى الصدر. كان مرضاً مدمراً جداً. الكثير من الناس ماتوا بسببه. لم يعد باستطاعة أحدٍ المشي، فقط يبقون مضطجعين، ممددين في فُرُشهم. ما من أحدٍ يقدر على الحراك، لا يستطيع أحدٌ أن يدير عنقه، لا يتمكن من تحريك جسمه، لا يقدر على النوم ووجهه للأسفل، ولا النوم على ظهره، ولا الحركة من جانبٍ لآخر. وعندما يتحركون قليلاً فإنهم يصرخون من الألم.

---

(١) الشهور الأزتيكية يتألف كل منها من ٢٠ يوماً، والعشرينية: هي واحدة من الـ ١٨ شهراً أو العشرينيات التي يتألف منها العام (١٨× ٢٠ = ٣٦٠ +٥ أيام تسمى متممات).

لقد قتل الكثيرين هذا المرضُ اللعينُ، مرض البثور. الكثيرون ماتوا بسببه، لكن آخرين كثراً ماتوا جوعاً فحسب: حصل موتٌ بسبب الجوع: ماعاد أحدٌ يعتني بأحد، ما من أحدٍ يهتم لأحد. لكن البعض لم تصبه البثور إلا قليلاً: هؤلاء لم يعانوا كثيراً، لم يمت الكثير منهم بسبب ذلك. لكن آخرين كثراً تشوهت وجوههم، صارت محفورةً ومنمشة. بعضهم أصيب بالعمى، أي فقدوا البصر.

غائلة الوباء دامت ستين يوماً، ستين يوماً مشؤومةً. بدأ في كويتلان: عندما تنبهوا له كان قد تطور جداً. باتجاه شالكو امتد الطاعون. وبهذا الوقت ضعف لكنه لم يتوقف بالكلية. حل مع عيد تيوتليكو، وبلغ منتهاه بحلول عيد بانكيتزاليزتلي. حينها أصبحت نظيفةً وجوه المحاربين.

الإسبان يظهرون مجدداً

لكن الآن، بينما الأمور كذلك يأتي الإسبان، يبدؤون المسير باتجاهنا من هناك من تيتزكوكو، من جهة كواوتيتلان: أتوا ليقيموا معسكرهم، والتموضع في تلاكوبان. من هناك بعدها يقسمون أنفسهم، من هناك يتوزعون.

بيدرو دي ألفارادو حُدّد له قطاعه (العسكري) الطريق الذاهب إلى تلاتيلولكو. وأما الماركيز كورتيس فقد أخذ اتجاه كويواكان. وكان قطاعه الخاص الطريق المار من أكاشينانكو باتجاه تينوشتيتلان. والماركيز يعلم علم اليقين بالشجاعة المفرطة لقائد تينوشتيتلان. وفي وهدة تلاتيلولكو أو في موقع "قمة الأشجار" هناك بدأت الحرب. من هناك امتدت إلى نونوهوالكو: طاردهم المحاربون ولم يقتل أي مكسيكي.

بعد ذلك يعود الإسبان فيهاجمهم المحاربون من الزوارق. والزوارق محميةٌ جيداً. يطلقون السهام: سهامهم تمطر فوق الإسبان. بعدها دخلوا. لكن بعد ذلك قام الماركيز بالحمل على التينوشكيين عبر الطريق الموصل إلى أكاشينانكو. بعدها ينتقل الماركيز إلى موقع أكاشينانكو. يحارب بجمعٍ غفيرٍ والمكسيكيون يجابهونه.

الإسبان يهاجمون بزوارق

وحينذاك تأتي السفن من تيتزكوكو. هي بالمجمل اثنتا عشرة سفينة. كلهم تجمعوا هناك في أكاشينانكو. إذ ذاك ينتقل الماركيز إلى تلك الناحية.

بعدها راح يفتش عن مداخل ومخارج للسفن: أي مكانٍ هو أفضل للدخول في مجاري المياه، هل هي عميقة، أم ليست عميقة، لئلا تعلق القوارب في مكانٍ ما. أما الأقنية المعوجة وغير المستقيمة، فإنهم لم يتمكنوا من إدخال القوارب فيها. أدخلوا قاربين فقط، مرروهم عبر طريق شولوكو: سوف تمضي بشكلٍ مستقيم. وفي ذلك الحين قرّروا ، وتعاهدوا على أنهم سوف يدمرون المكسيكيين ويقضون عليهم. اصطفوا إذ ذاك وهم يحملون المدافع. تتقدمهم الراية القماشية الكبيرة. إنهم ليسوا في عجلةٍ من أمرهم وغير متوترين. يسيرون وهم يدقون طبولهم، وينفخون بأبواقهم. يعزفون مزاميرهم وآلاتٍ موسيقية أخرى.

مركبان شراعيان يتقدمان ببطء: فقط من جانبٍ واحد من القناة يعبران. من الجهة الأخرى لا يمر أي قارب لأنه توجد بيوت. ثم هناك تحدث إغارةٌ وينشب القتال. من جانبٍ وآخر يقع قتلى، من جانبٍ وآخر

هنالك أسرى. لَّما رأى أهلُ زوكيابان التينوشكيين، لاذوا بالفرار، راحوا يركضون ممتلئين ذعراً. يحملون أطفالهم الصغار والعجزة.

يسير العامة في الماء بلا اتجاه وعلى غير هدىً هائمين على وجوههم. يعم البكاء. وأصحاب القوارب، وضعوا فيها أطفالهم الصغار وراحوا يجدفون بحماس. لم يأخذوا شيئاً معهم: من شدة الخوف، تركوا وراءهم كل ما هو لهم، ملكيتهم الصغيرة تركوها للضياع.

حصار المدينة بالسفن

لكنَّ أعداءنا راحوا يستولون على الأشياء، ويجمعونها، يأخذون كل ما يصادفونه في طريقهم وكل ما يظهر أمامهم. يأخذون وينتزعون الأقمشة، والأغطية، واللحف، والشارات الحربية، والطبول الكبيرة والصغيرة. والتلاتيلولكيون قاوموهم هناك في زوكيابان من قواربهم.

عندما وصل الإسبان إلى مفرق مكسيكو، حيث يوجد سورٌ وسط الطريق يغلق المرور، عندئذٍ بالمدفع الكبير ضربوه: لم يَنْهَرْ من القذيفة الأولى، لكنه من الثانية انصدع ومن الرمية الثالثة أخيراً سقط جزءٌ منه أرضاً. ومن القذيفة الرابعة هوى بكامله.

سفينتان أتتا للقاء الذين لديهم قوارب محميةٌ بالتروس. ينشب القتال على الماء. المدافع منصوبةٌ على مقدم السفينة وفي اتجاه تجمع القوارب، حيث تحتشد بجانب بعضها، إلى هناك يطلقون قذائفهم. مات الكثير من الناس وغرقوا في الماء، انغمروا واستقروا في القاع بسرعة. أما سهام الحديد فإن ذلك الذين تصيبه لا ينجو أبداً: يموت في الحال، يلفظ أنفاسه فوراً.

ردة فعل المكسيكيين

لكن عندما رأى المكسيكيون، ولاحظوا أن طلقات المدفع أو البندقية تمضي بشكلٍ مستقيم، لم يعودا يسيرون في خطٍ مستقيم، وإنما راحوا ينتقلون من جهة إلى أخرى بخطٍ متعرج، يتنحون إلى جهةٍ وأخرى متحاشين المواجهة. وعندما يرون أن مدفعاً سوف يطلق، ينبطحون أرضاً، يتمددون، يلتصقون بالأرض. والمحاربون يدخلون بسرعةٍ بين البيوت، في الفراغات التي بينها: حينئذ نظيفاً يبقى الطريق، خالياً كما لو أنه منطقةٌ غير مأهولة.

لاحقاً وصلوا إلى هويتزيلان. هناك يرتفع سورٌ آخر. والكثيرون انسحبوا إلى جانبه، وهم الآن يلتجئون ويحتمون بذلك السور.

إنزالٌ إسباني

قريباً منه يرسون، تتوقف قواربهم، يتوقفون قليلاً لكي ينصبوا المدافع. أتوا يتتبعون الذين يسيرون في سفن، وعندما صاروا بقربهم قاموا بالانتشار واقتربوا من جميع البيوت.

عندما انتهوا من تحضير المدافع، أطلقوا قذائف على السور. لدى تلقيه الضربة فإن السور امتلأ شقوقاً. من ثم تصدع وانفتح من الخلف. لدى تلقي القذيفة الثانية سقط أرضاً: انفتح من جانبٍ وآخر، انكسر، وامتلأ ثقوباً. صارت الطريق عندها نظيفةً كلياً. والمحاربون الذين كانوا إلى جانب السور في الحال تفرقوا. تشتت الجميع، هربوا من الخوف.

الأعداء تعاونوا لسد القناة، وبسرعةٍ ردموها وسووها، بحجارةٍ، بطوبٍ، وحتى ببعض أغصان الشجر لمنع مرور الماء. وعندما تم ردم القناة عبر من هناك راكبوا الجياد. عددهم ربما عشرة. داروا، ولفوا وعادوا إلى جهةٍ وأخرى. ومباشرةً دفعةٌ أخرى من المحاربين راكبي الخيول مروا عبر الطريق نفسه يتبعون الذين عبروا أولاً. بعض جند تلاتيلولكو الذين كانوا قد دخلوا على عجلٍ في القصر، البيت الذي كان لموكتيثوما، خرجوا مذعورين جداً: التقوا فجأة براكبي الخيول. أحد هؤلاء سدَّد طعنات إلى جماعة تلاتيلولكو.

لكن الذي تم جرحه تمكن من مسك الرمح. من ثم أتى أصدقاؤه لانتزاع الرمح من الجندي الإسباني. أسقطوه أرضاً على ظهره وطرحوه على قفاه، وعندما سقط على الأرض في الحال ضربوه، وقطعوا رأسه، هناك بقي ميتاً.

من ثم يبدؤون المسير متحدين، يتحرك الإسبان بجموعهم. وصلوا بهذه الطريقة إلى باب النسر جالبين معهم المدافع الكبيرة. نصبوها في باب النسر. سبب تسمية هذا الموضع بـ "باب النسر" هو أنه كان فيه نسرٌ مصنوعٌ من الحجر المنحوت. كان كبيراً جداً، ومرتفعاً وجسيماً للغاية. ووضعوا له شريكاً نمراً منحوتاً. وفي الجهة المقابلة دب العسل، أيضا منحوتٌ من الحجر.

ولما صارت هكذا الأمور، فان المحاربين المكسيكيين اختبئوا عبثاً خلف الأعمدة. لأن هناك صفين من الأعمدة في ذلك المكان. وفوق سطح الدار العامة أيضاً انتشر المحاربون، صعدوا إلى السطح. لم يعد أحدٌ منهم يبدي وجهه علانيةً.

من جانبهم الإسبان بالتأكيد لم يكونوا خاملين. عندما انتهوا من ضرب المدافع، أظلم الجو كما الليل البهيم، انتشر الدخان. و(المكسيكيون) الذين كانوا كامنين خلف الأعمدة هربوا: حصل تشتتٌ عام. والذين على السطوح هبطوا للأسفل: كلهم فروا بعيداً.

الإسبان يتوغلون داخل المدينة

بعد ذلك حمل الإسبان المدفع و وضعوه على صخرة تقديم القرابين.

بينما الأمر كذلك فإن بعض المكسيكيين وقفوا على معبد هويتزيلوبوشتلي ولازالوا عبثاً يرصدون. يقرعون الطبول، بكل عزيمةٍ يضربون الطبول. وفي الحال صعد إلى هناك اثنان من الإسبان، لكنهم بدؤوا بضربهم وبعد أن ضربوهم أسقطوهم إلى الأسفل، أهووا بهم. والضباط الكبار والمحاربون

جميعاً من الذين يحاربون في القوارب أتوا في الحال، أتوا ليرسوا إلى الأرض اليابسة. الذين يجدفون هم اليافعون: هم من يقود المراكب.

لما تم ذلك بدؤوا بتفتيش الشوارع: راحوا يطوفون فيها ويصيحون قائلين:

أيها المحاربون تعالوا لاستئناف الأمر!...

ولَّما رأى الإسبان أنهم قادمون إليهم، وأنهم آتون لمطاردتهم، إذ ذاك انسحبوا وأغمدوا سيوفهم. حصل تجمهرٌ كبيرٌ وجريٌ عام. من جهةٍ وأخرى تسقط السهام عليهم. من جهةٍ وأخرى أتو ليضيقوا الخناق عليهم. تراجعوا حتى مفرق مكسيكو ليصلحوا وضعهم، ذهبوا لالتقاط أنفاسهم. من هناك كانت عودة (المكسيكيين). الإسبان تقهقروا. ذهبوا للتموضع في أكاشينانكو، وأما المدفع الذي كانوا قد وضعوه على صخرة تقديم القرابين، فقد تركوه مهجوراً. أخذه لاحقاً المحاربون المكسيكيون، جروه بغيظٍ ورموه في الماء. في الموضع المسمى تيتامازولكو "ضفدع الصخور" ألقوه فيه.

أهل مكسيكو يلتجئون إلى تلاتيلولكو

في هذا الوقت المكسيكيون التينوشكيون أتوا للالتجاء إلى تلاتيلولكو.

كان البكاء عاماً، يبكون بصرخاتٍ كبيرة. نحيبٌ و دموعٌ تجري من عيون النساء. الكثير من الأزواج يبحثون عن نسائهم. بعضهم يحمل على الأكتاف أطفالهم الصغار. الوقت الذي تركوا فيه المدينة هو يومٌ واحدٌ فقط. لكن رجال تلاتيلولكو ساروا إلى تينوشتيتلان لاستئناف المعركة. حينها بيدرو دي ألفارادو هجم على منطقة أليا كاك "رأس الأشجار" حيث جهة

نونوهوالكو، لكنه لم يستطع فعل شيء، وكان جنده كمن يناطح صخراً: لأن أهل تلاتيلولكو هم رجالٌ ذوو شكيمة وبأس شديد. حصلت معارك في الجهتين: على الأرض اليابسة وفي الشوارع وفي الماء عبر قوارب عليها تروسٌ دفاعية. الفارادو يئس وعاد أدراجه. ذهب ليعسكر في تلاكوبان.

لكن في اليوم التالي عندما وصل إلى هناك قاربان كانا في الطليعة، اجتمعوا عند شاطئ بيوت نونوهوالكو، هناك تموضعوا. من ثم قفزوا إلى الأرض وتابعوا عبر الطرقات اليابسة، الطرقات التي بين الماء. من ثم مضوا إلى وسط البلدات، حيث البيوت، وصلوا إلى المركز. إلى حيث يصل الإسبان يصبح كل شيء مقفراً. ولا رجلٌ واحدٌ يخرج من بيته.

القائد المكسيكي تزيلاكاتزين

تزيلاكاتزين وهو ضابطٌ كبيرٌ شجاعٌ ومقدام، يصل لاحقاً. يحمل معه بإحكامٍ ثلاثة من الحجارة، مدورةٌ، حجارةٌ من التي تبنى بها الأسوار، أي حجارةٍ من الصخر الأبيض الصلد.

حجرٌ واحد يحمله في يده والآخران في تروسه. ومن ثم يهاجم بهذه الحجارة ويرميها على الإسبان: هم يتحركون عبر الماء، هم داخل الماء، فينسحبون.

وتزيلاكاتزين هذا كان برتبة أوتومي (رتبة عسكرية عالية). كان بهذه الرتبة، ولهذا يقص شعره على طريقة حاملي هذه الرتبة. لذلك ما كان يأبه للأعداء، كائناً من كانوا، حتى لو كانوا من الإسبان أنفسهم: ما كان يعدُّهم

شيئاً وإنما جميعاً يملؤهم رعباً. عندما يرى أعداؤنا تزيلاكاتزين فإنهم يجبنون ويجتهدون لمعرفة طريقةٍ ما يقتلونه بها، هل بالسيف أم بطلقة بندقية.

لكن تزيلاكاتزين فقط يسير مقنعاً لئلا يتعرفوا عليه. كان يأخذ أحياناً شاراته: قناعه وأذنيه الذهبيتين، أيضا يلبس طوقاً من القواقع. فقط يكشف رأسه مظهراً بذلك أنه برتبة أوتومي. لكن في حالاتٍ أخرى فقط يحمل درعه القطنية، وبقماشةٍ رقيقةٍ يلف رأسه. أحياناً أخرى يتنكر بهذه الطريقة: يلبس خوذةً من الريش على هيئة نسرٍ متأهب. وهي الزينة التي يتزين بها من يلقي الضحايا في النار. يخرج إذن كملقي الضحايا في النار، كالذي سيلقي في النار الرجال وهم أحياء: يلبس أساور من ذهبٍ في ذراعه، من جهةٍ وأخرى مثبتة على ذراعيه، وهذه الأساور لامعةٌ جداً. أيضاً يرتدي على ساقيه قطعتي قماشٍ مذهبتين وشديدتي اللمعان.

وفي اليوم التالي عاودوا الكرّة. ساروا بقواربهم إلى جهة نونوهوالكو، حتى أياوهكالكو "دار الضباب". أيضاً أتى المشاة وجميع جند تلاكسكالا وحملة رتبة الأوتومي. بحماسةٍ كبيرةٍ هجم الإسبان على المكسيكيين. عندما وصلوا إلى نونوهوالكو حينها نشب القتال. حدثت المعركة واستعرت واضطرم الهجوم وحمي الوطيس. هناك قتلى في طرفٍ وآخر. الأعداء أصابتهم السهام جميعاً، وأيضاً كل المكسيكيين. في جانبٍ وآخر هناك فجائع. المعركة دامت طوال النهار والليل. فقط ثلاثة قادةٍ لم يتراجعوا قطُّ. إنهم لا يأبهون للأعداء، وقد أرخصوا مهجهم. اسم الأول تزويكتزين، والثاني تيموكتزين والثالث هو المذكور تزيلاكاتزين.

لكن عندما تعب الإسبان، ولم يتمكنوا من كسر شوكة المكسيكيين، ولم يعودوا يستطيعون كسر صفوفهم، إذ ذاك عادوا ودخلوا في ثكناتهم، ذهبوا لأخذ استراحة وتبعهم خلف ظهورهم أيضاً حلفاؤهم.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني عشر

غارات الإسبان داخل المدينة المحاصرة

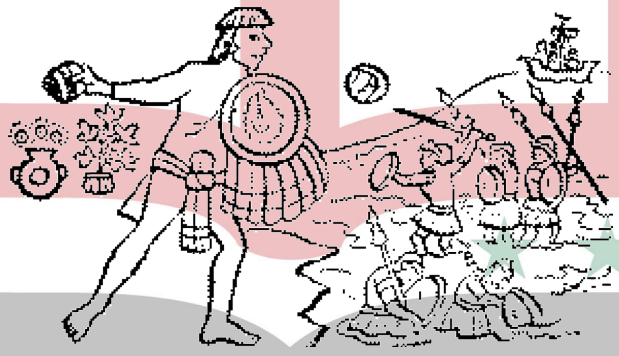

الشهادات الهندية تحفظ لنا مشاهد كثيرةً ذات واقعيةٍ حيةٍ حول ما حصل في مكسيكو- تينوشتيتلان، خلال الحصار الطويل الذي فرضه عليها الفاتحون.

إن نصوص رواة ساهاغون التي نوردها هنا تشير إلى المعارك التي تحصل في كل لحظةٍ في الأطراف حتى داخل المدينة نفسها. في أول هجمات الفاتحين، قام المكسيكيون بأسرِ خمسة عشر إسبانياً، وتم تقديمهم كأضاحٍ لاحقاً، أمام أنظار أبناء قومهم الذين كانوا يشاهدون من داخل القوارب كيف يجرعهم المكسيكيون الموت.

النص يتناول أيضاً الوضع المأساوي للمحاصرين، والطريقة التي دخل بها الإسبان سوق تلاتيلولكو، وحريق المعبد والطريقة التي صد بها المكسيكيون بشجاعةٍ منقطعة النظير أولئك الذين حاولوا أن يستولوا على مدينتهم. لاحقاً توصف الطريقة التي وضع بها الإسبان منجنيقاً على الهيكل الذي كان في ساحة سوق تلاتيلولكو لمهاجمة المكسيكيين به. ولدى التطرق لنهاية الحصار يُستذكر الجهد الأخير الذي بذل لإنقاذ المدينة.

كواوتيموك الذي خلف كويتلاهواك في القيادة العليا على المكسيكيين، لأن الأخير قضى نحبه بالوباء، قرر حينذاك أن يُلبس ضابطاً اسمه أوبوشتزين شارات الملك أهويزوتل. هذه الزينة تحول ذلك الرجل إلى "وحش الكيتزال"، تعطيه قوةً لا تقهر. يقال إنه في هذه الشارات تتوضع عزيمة الإله هويتزيلوبوشتلي. كانوا يعتقدون أنهم لدى رمي سهم الإله، "أفعى النار"، فإنه إذا ما أصاب هذا السهم واحداً أو اثنين من الأعداء، فإن النصر لا يزال ممكناً. النص الأزتيكي يذكر كيف ارتعب الإسبان عند رؤية "وحش الكيتزال."

هكذا انتهت المعركة، حصلت برهةٌ من الهدوء الذي ينذر بالنهاية المشؤومة. كما سنرى في هذا الفصل، ظهر في ذلك الوقت شيءٌ مثل لهبٍ عظيم بدا آتياً من الشمس. كان مثل دوامةٍ تنساب بشكلٍ حلزوني: إنه النذير الأخير بخراب مكسيكو–تينوشتيتلان.

خمسة عشر إسبانياً أُسروا وقُدِّموا كقرابين

يبدأ لاحقاً الهدير، يبدؤون بالنفخ بالأبواق. يضربون ويلوحون بتروسهم، أي من هم متأهبون للحرب. يطاردون الإسبان، يضيقون الخناق

عليهم، يخيفونهم: من ثم قبضوا على خمسة عشر إسبانياً. أخذوهم بينما قوارب الإسبان تراجعت إلى وسط البحيرة. ولمَّا أتموا ثمانية عشر أسيراً، كان عليهم أن يقدموهم كأضاحي هناك في تلاكوشالكو (دار الترسانة). في الحال يجردونهم، ينزعون عنهم دروعهم، واللباس القطني الذي تحتها وكل ما يرتدون. جلبوهم عراةً تماماً. إثرها يحولونهم إلى أضاحٍ ويبقرون صدورهم (لاستخراج القلب). وأبناء جلدتهم ينظرون من داخل المياه إلى الطريقة التي يذيقونهم بها الموت.

مرةً أخرى أدخلوا قوارب شراعية في شوكوتيتلان. عندما رسوا هنالك ذهبوا إلى بيوت الذين يعيشون هناك. لكن تزيلاكاتزين وبعض المحاربين المكسيكيين الآخرين عندما رأوا الإسبان حملوا عليهم، راحوا يهاجمونهم، ضيقوا عليهم لدرجة أنهم أسقطوهم في المياه.

أيضاً في فرصةٍ أخرى أخذوا سفنهم الشراعية باتجاه كويوناكازكو لخوض المعركة والهجوم. وعندما وصلوا إلى هناك خرج بعض الإسبان. يقود أولئك الجند كاستانييدا وشيكوتينكاتل. هذا جاء مرتدياً ثوباً من ريش الكيتزال. رموا بالقوس الحديدية وأحدُنا أصيب في جبهته ومات في الحال. الذي ضرب بالقوس هو كاستانييدا، لكن قومنا أجبروهم على التراجع عبر الماء وبالحجارة ضايقوهم. كاد يموت هناك كاستانييدا، لكنه بقي ممسكاً بالقارب وخرج إلى شوكوتيتلان.

كان قد تم وضع قاربٍ شراعيّ آخر وراء السور، حيث ينعطف السور، وآخر في تلاتيلولكو، حيث الطريق يستقيم باتجاه المكان الذي يدعى "الصخرة". كانوا كأنهم يحرسون البحيرة. في الليل سحبوهم. وبعد

مرور بضعة أيامٍ عاودا الكرة ضدنا مرةً أخرى. أتوا للظهور من جهة كواهويكاتيتلان، في الطريق اصطفوا. وأهل تلاكسكالا وأكولهواكان وشالكو ردموا القناة، و بهذه الطريقة أعدوا طريقاً. رموا هنالك أحجاراً من الطوب، وأخشاب المنازل: السقوف والعوارض والزوايا والأعمدة. وعيدان القصب التي تستخدم للتسور رموها أيضاً في الماء.

هجومٌ إسباني جديد

رُدمت القناة، حينئذٍ يرحل الإسبان وبحذرٍ يمشون: الراية في المقدمة، إنهم يعزفون مزاميرهم ويقرعون طبولهم. وراءهم يسير جند تلاكسالا جميعاً، وكل الأقوام الذين تحالفوا معهم. التلاسكالتيك يتصنعون الشجاعة، يحركون رؤوسهم بعجرفة، يدقون على صدورهم (فرحاً). يسيرون وهم يغنون، لكن أيضاً يغني المكسيكيون.

من جانبٍ وآخر يُسمع الغناء. ينشدون الأهازيج الملحمية التي يتذكرونها، وهذه تعطيهم حماسةً وقوةً وإقداماً.

عندما يصلون إلى اليابسة فإن المحاربين المكسيكيين ينبطحون، يلتصقون بالأرض، يتخفون ويبدون منكمشين. إنهم يتربصون متحينين الفرصة التي عليهم فيها أن ينقضّوا. هم يصيخون الأسماع بانتظار الصيحة، لكي ينتصبوا واقفين.

وأخيراً سُمع النداء:

أيها المكسيكيون... الآن!...

بعدها أتى ليرى الأمور الضابط هيكاتزين، يحمل عليهم قائلاً:

يا محاربي تلاتيلولكو، حان الوقت! من هم هؤلاء المتوحشون؟ فليبادروا بالمجيء إلى هنا!...

وفي الحال أسقط إسبانياً، ضربه بالأرض. وهذا ارتمى عليه وأيضاً طرحه أرضاً. فعل به مثل فعل الأول. لكن هيكاتزين عاد وطرحه، وإثر ذلك أتى آخرون لسحل ذلك الإسباني.

لما تم ذلك، أتى المحاربون المكسيكيون ليلقوه هناك. الذين كانوا ملتصقين بالأرض راحوا يطاردون الإسبان عبر الشوارع. والإسبان عندما رأو ذلك صاروا ببساطةٍ كما لو أنهم سكارى ثملون من هول المفاجأة.

في الحال تبدأ المعركة لأسر رجال. تم أسر الكثيرين من تلاكسكالا، أكولهواكان وشالكو وشوشيميلكو. حصادٌ كبيرٌ من الأسرى وحصادٌ كبيرٌ من القتلى. راحوا يطاردون الإسبان وحلفاءهم عبر الماء. الطريق صار زلقاً، ما عاد بالإمكان السير عليه، ببساطةٍ ينزلق الشخص ويتمرغ بالوحل. الأسرى يتم جرهم زحفاً. هناك بالضبط تم الاستيلاء على الراية، وتم انتزاعها. الذين غنموها هم أهل تلاتيلولكو. الموضع الدقيق حيث أخذوها فيه يسمى اليوم سان مارتين. لكن لم يعتبروها بشيء، لم يبالوا بها. إسبانٌ آخرون نجوا، ذهبوا ليستريحوا هناك على الشاطئ في جهة كولهواكان، على ضفة القناة. نزلوا هناك.

ثلاثة وخمسون إسبانياً يتم تقديمهم كقرابين

والآن يحمل المكسيكيون أسراهم باتجاه ياكاكولكو. يمضون بكل سرعةٍ، وهم يحرسون أسراهم. بعضهم يبكي، البعض يغني، آخرون يضربون بأيديهم على أفواههم، كما جرت العادة في أوقات الحرب.

عندما وصلوا إلى ياكاكولكو، وضعوهم في نسقٍ واحدٍ، في صفوف رتبوهم: واحداً واحداً يتم إصعادهم إلى المنصة: هناك يقدمون كقرابين.

الإسبان أولاً، تم البدء بهم. وأكملوا بمن معهم من بقية الأقوام الحليفة لهم.

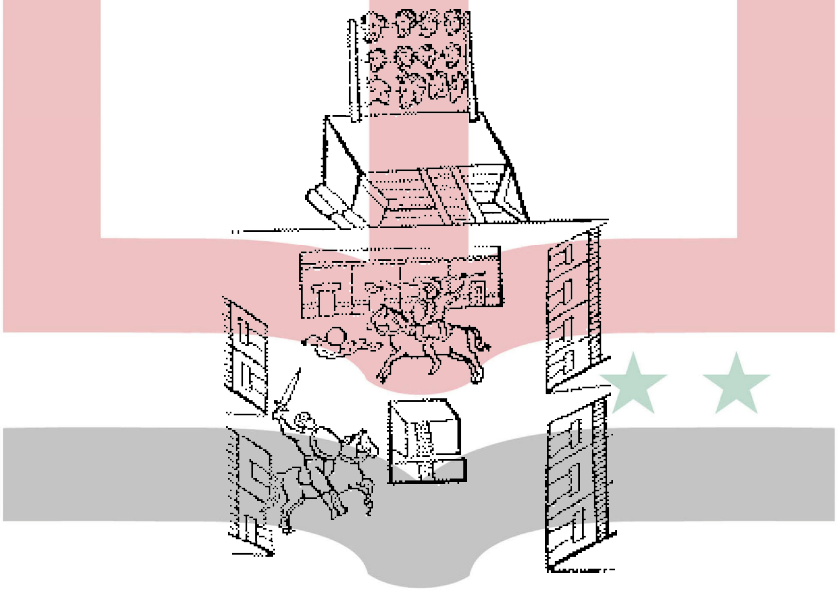

رؤوس إسبانٍ و خيولٌ قُدِّموا كأضاحٍ

لَمَّا انتهوا من تقديمهم كقرابين، نظموا في عصيٍّ رؤس الإسبان، أيضاً نظموا رؤوس الجياد. وضعوا هذه في الأسفل، وفوقها رؤوس الإسبان. الرؤوس المنظومة وجهها إلى الشمس. أما رؤوس الأقوام الحليفة لهم فلم ينظموها. الإسبان المأسورون كانوا ثلاثةً وخمسين رجلاً وأربعة جياد.

في كل ناحيةٍ كانوا متأهبين، ويحصل قتال، ولم تترك المراقبة. من كل اتجاهٍ يحاصرنا أهل شوشيميلكو في سفنهم. من جانبٍ وآخر يقع أسرى، من طرفٍ وآخر يسقط قتلى.

وضع المحاصرين

وكان كل الشعب مغموماً للغاية، يعاني الجوع، تخور قواه من الجوع. لا يشرب ماءً عذباً، ماءً نقياً، وإنما يشرب ماءً ملوثاً. الكثير من الرجال ماتوا، هلكوا بسبب الزحار.

كل ما كان يؤكل هي السحالي، والسنونو، وقشور عرانيس الذرة والنجيل سيِّئ الطعم. يسيرون وهم يمضغون بذور القنب أو زنابق مائية، وحشو البناء، وحتى جلود الوعول فإنهم يشوونها، يحرقونها، يقمرونها، يفحِّمونها ويأكلونها. يأكلون بعض الأعشاب الشوكية حتى يأكلون وحلاً.

لا شيء مثل هذا العذاب: إنه أمرٌ فظيعٌ العيش تحت الحصار. عم الجوع تماماً. شيئاً فشيئاً راحوا يلصقوننا بالجدران، وشيئاً فشيئاً راحوا يرغموننا على التقهقر.

الإسبان يدخلون سوق تلاتيلولكو

وحصل مرةً أن مقاتلين على خيول (فرساناً) دخلوا السوق. وبعد أن دخلوا جالوا فيه وراحوا يمشون بجانب السور الذي يغلق الدائرة.

راحوا يطعنون المحاربين المكسيكيين، بحيث مات الكثيرون منهم. خرّبوا كل السوق، وعاثوا فساداً فيه، كانت المرة الأولى التي يصلون فيها إلى السوق. بعد ذلك ذهبوا، انسحبوا.

بدأ المحاربون المكسيكيون الجري خلفهم، تتبعوهم. فهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها الإسبان السوق فجأةً دون أن ينتبه لذلك المكسيكيون.

حريق المعبد

في هذا الوقت بالذات أضرموا النار في المعبد وأحرقوه. وما كادت توضع فيه النار حتى استعر: ارتفعت ألسنة اللهب في الجوّ، عالياً جداً ارتفع لظى اللهيب. النار لدى استعارها تصدر صوتاً وتفرقع كثيراً. لمّا رأوا المعبد يشتعل، علا الصياح والبكاء، يكلم المكسيكيون بعضهم بعضاً باكين. اعتقدوا أنه بعد ذلك سيتم نهب المعبد.

وقتاً طويلاً دام القتال في السوق، وعلى أطرافه نشب قتالٌ أيضاً: لا يكادون يغادرون السور من ناحية سوق الكلس ومن جهة سوق البخور، وحيث تباع حلزونات الماء وسوق الزهور. ومن كل المداخل التي بين البيوت، راح الأعداء يدخلون.

على السور بقي المحاربون المكسيكيون وجميع بيوت حارة كيشولان التي هي في مدخل السوق جُعلت كسورٍ واحد. على سطوح المنازل يرابط الكثيرون. من هناك يرمون الحجارة، ومن هناك يرشقون بالنبل. وجميع تلك البيوت في كيشولان تم ثقبها من الخلف، جُعل فيها ثقبٌ ليس بكبير، وهكذا عندما تتم مطاردتهم من قبل راكبي الخيول، عندما يريدون طعنهم بالرماح أو دهسهم، أو يقطعون الطريق عليهم فإن المكسيكيين عبر هذه الثقوب ينسلّون لإنقاذ أنفسهم.

غارةٌ إسبانية جديدة

حصل مرةً أن وصل الإسبان حتى أتلياكابان. طبعاً نهبوا و أمسكوا بالناس ليأخذوهم معهم، لكن لمّا رآهم المحاربون المكسيكيون، طاردوهم وأطلقوا السهام عليهم.

كان يسير هنالك قائدٌ صنديدٌ اسمه أشوكينتزين. حمل بقوةٍ على الأعداء، جعلهم يرمون غنائمهم، أجبرهم على التراجع: هذا القائد قُتل هناك: رموه بحربةٍ: اخترقت صدره: في قلبه دخلت الطعنة. نفذت الحربةُ منه وسقط ميتاً أرضاً. عندئذٍ انسحب الأعداء وعلى الأرض استلقوا. أيضاً هناك في ياكاكولكو حصلت معارك. الإسبان راحوا يطلقون سهامهم الحديدية الفتاكة.

بالمقابل وفي صفٍ متناسقٍ راح أولئك الملوك الأربعة يقدمون المساعدة (للمكسيكيين) ويُسدُون النصح لهم: إنهم يسدُّون الطريق على الأعداء.

بعدئذٍ تأهّب المحاربون المكسيكيون للدخول عبر المؤخرة عندما تميل الشمس. وعندما حدث ذلك، وصل بعض الأعداء وتسوروا سطوح المنازل، ومن هناك صرخوا:

- إيه يا جماعة تلاكسكالا: تعالوا للتجمع هنا. هنا أعداؤكم!

عندئذ رشقوا سهاماً على الكامنين: هؤلاء تفرقوا وتشتتوا جميعاً.

بكل هدوءٍ وصل أولئك حتى ياكاكولكو: هناك نشب القتال. حيث اصطدموا بمقاومةٍ ولم يتمكنوا من شق صفوف عسكر تلاتيلولكو: هؤلاء من مكان تموضعهم في الضفة المقابلة يرمون سهاماً ضد أولئك، يقذفون حجارةً على المكسيكيين. لكن لم يتمكن الإسبان من الاستمرار في خوض المياه، ولم ينصبوا أي جسر...

نصب المنجنيق في سوق تلاتيلولكو

في هذا الوقت نصب الإسبان في المعبد الصغير منجنيقاً مصنوعاً من الخشب لقذف الحجارة على المكسيكيين. عندما انتهوا من ذلك، وأوشكوا أنْ يرموا، أحاط الكثيرون به، يشيرون إليه بالإصبع، صار يتأمله معاً المكسيكيون الذين كانوا مجتمعين في أماشاك.

كان عامة الناس هنالك ينظرون. الإسبان يقومون بما يلزم للقذف عليهم. سيرمون عليهم مقذوفاً على طريقة المقلاع. في الحال يديرونه، يحركونه على شكل مروحة، ومن ثم يثبتون الهيكل الخشبي لتلك الآلة التي هي على شكل مقلاع. لكن الحجر لم يسقط على أهل البلد، وإنما تجاوزهم ليسقط وراءهم في ركنٍ ما من السوق. لذلك تشاجر الإسبان بعضهم مع بعضٍ على ما يبدو. راحوا يشيرون بالأيدي باتجاه المكسيكيين ويكثر لغطهم.

لكن ذلك الاختراع الخشبي راح يدور ويدور، دون الثبات على اتجاه معين، فقط ببطءٍ كبيرٍ راح يصحح رميه. بعد ذلك استبان ما هو: في رأسه يوجد مقلاع، الحبل ثخينٌ جداً. وبسبب هذا الحبل سمي "المقلاع الخشبي."

مرةً أخرى انسحب الإسبان وجماعة تلاكسكالا جميعاً. مرةً أخرى يصطفون في ياكاكولكو وفي سوق البخور. وهناك قائدٌ يقود المهاجمين، ببطءٍ راح يكسب الأرض.

هجومٌ مكسيكيٌ مضاد

من جانبهم المحاربون المكسيكيون يأتون للدفاع في صفوف. يشعرون أنهم أقوياء جداً، يبدون رجالاً أباةً. لا أحد يشعر بالخجل، لا أحد يبدو مخنثاً. يقولون:

- سيروا إلى هنا، من يكون هؤلاء المتوحشون؟ إنهم حثالةٌ من جنوب الأناهواك.

المحاربون المكسيكيون لا يمضون في اتجاهٍ واحد، يأتون ويغدون كيفما اتفق. لا أحدٌ يقف مباشرة، ما من أحد يمضي في اتجاهٍ مستقيم.

الآن صار الإسبان كثيراً ما يتنكرون: لا يُبدون حقيقتهم. كما يتزين أهل هذه البلاد هم كذلك يتزينون. يضعون شاراتٍ حربية، يلبسون خوذةً في الأعلى لخداع الناس، يمضون وأجسامهم مغطاةٌ بالكامل، وهكذا يوقعون الناس في الخطأ. عندما تصيب سهام الإسبان أحداً ما فإن البقية ينبطحون أرضاً، ويحصل تشتت. هم متيقظون جداً. يمعنون النظر كي يروا في أي اتجاهٍ سيخرج المقذوف. شديدي الحذر كان أهل تلاتيلولكو، إنهم يحترسون جيداً آخذين احتياطاتهم.

لكن الإسبان خطوةً فخطوة راحوا يتوغلون في أرضهم، ويلتصقون بالبيوت. وفي سوق البخور في الطريق إلى أماشاك، كانت قريبةً جداً منا تروسهم، ويأتون لتوجيه رماحهم إلينا.

عملية "وحش الكيتزال"

من جانبه الملك كواوتيموك ومعه كبار الضباط أخذوا ضابطاً كبيراً اسمه أوبوشتزين، وهو دهانٌ بالمهنة. في الحال وضعوا عليه ثياب "وحش الكيتزال"، الذي كان لباس الملك أهويزوتزين.

قال له كواوتيموك:

- هذه الشارة خاصة بالقائد الكبير الذي هو أبي أهويزوتزين. احملها، ضعها واستمت في القتال وأنت تحملها. بها أفزع، بها نكل بالأعداء. فليرها أعداؤنا وليذهلوا.

ووضعوها له. فبدا مرعباً جداً ومدهشاً. وفرزوا أربعة ضباط لرفقته وكي يحموه. أعطوه شعار الساحر. كان هذا:

سهمٌ طويلٌ مثبتٌ على عصا، وعلى رأسه حجر صوان، وبهذا نصَّبوه بحيث يمكن اعتباره من بين أمراء مكسيكو.

قال القائد تلاكوتزين:

- أيها المكسيكيون والتلاتيلولكيون:

لا شيء ذلك الذي عاشت به مكسيكو! الذي استمرت به الأمة المكسيكية! يقال إنه في هذه الشارة مكنونةٌ إرادة الإله هويتزيلوبوشتلي:

ليرمها على العدو، فإنها ليست إلا أفعى النار (شيوهكواتل)، مثقب النار (ماماهوازتلي)، أتى بها ليرميها على الأعداء!

أيها المكسيكيون إنكم تنفذون إرادة هويتزيلوبوشتلي برمي هذا السهم. في الحال ستخرجونها باتجاه أعدائنا. لا تلقوها كيفما اتفق على الأرض، عليكم أن ترموا بها على الأعداء.

واذا ما جرح هذا السهم واحداً أو اثنين ، إذا ما أصاب واحداً أو اثنين من أعدائنا، فإنه لا يزال في عمرنا بقية، لايزال لدينا متسعٌ من الوقت للنجاة. الآن فلتتحقق إرادة ربنا!...

هاهو يمضي مباشرة "وحش الكيتزال". ريش الكيتزال يبدو وكأنه ينتفخ ويتفتّح. عندما رآه أعداؤنا، بدا وكأن تلاً مرتفعاً قد انهار. فزع الإسبان كثيراً: فقد ملأهم ذعراً: كما لو أنهم قد رأوا فوق الشعار شيئاً غريباً. صعد إلى السطح "وحش الكيتزال". ولمّا رآه بعض أعدائنا، ذهلوا ومن ثم عادوا، وتجهزوا لمهاجمته. لكن مرةً أخرى أجبرهم على التراجع، لاحقهم "وحش الكيتزال". عندئذٍ أخذ الريش والذهب وهبط فوراً من على السطح. لم يمت هو ولم يأخذ أعداؤنا الذهب والريش. وأيضاً تم أسر ثلاثةٍ من الأعداء. فجأةً انتهت المعركة، شاع الهدوء ولم يحدث شيءٌ آخر. إثر ذلك انسحب أعداؤنا وكل شيء بقي هادئاً. لم يحدث أي شيءٍ خلال الليل.

في اليوم التالي لم يحدث شيءٌ على الإطلاق. وما من أحد يتكلم حتى. المكسيكيون يتمركزون بشكلٍ دفاعي. والإسبان لم يبادروا بفعل شيء، فقط كانوا في مواقعهم، ينظرون باستمرار إلى المكسيكيين. لم يحصل شيءٌ. كلا الطرفين لم يفعلْ أكثر من البقاء في حالة ترقب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث عشر

استسلام مكسيكو- تينوشتيتلان

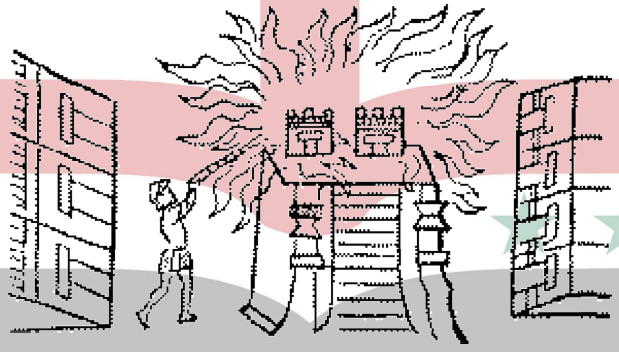

ثلاثةٌ هي المصادر الهندية التي تأتي منها النصوص الواردة في هذا الفصل، حول استسلام العاصمة المكسيكية العظيمة.

الشهادة الأولى لرواة ساهاغون تذكر نذير شؤمٍ أخيراً بدا وكأنه يعلن الدمار الوشيك للمكسيكيين. حسب هذا النص الهندي فإن كواوتيموك بمحض إرادته سلم نفسه للإسبان. المأساة التي رافقت الاستيلاء على المدينة يصفها لنا على التوالي النص الهندي بطريقةٍ بليغةٍ ومعبرة.

الشهادة الثانية المضافة تأتي من "الرواية ١٣" لألفا إشتليلشوشيتل التي ذكرت مراراً.

في هذا النص الذي ترد فيه الكلمات التي قالها كواوتيموك لكورتيس، حين أُسر، أمسك الدرقة التي يحملها الفاتح، وتوسل له بأن يضع نهايةً لحياته كما قد وضع فعلياً نهايةً لملكه.

مثيرةٌ للاهتمام الكلمات الحرفية لإشتليلشوشيتل، الذي يؤكد أنه خلال حصار مكسيكو- تينوشتيتلان مات "تقريباً كل النبلاء المكسيكيين، وما بقي منهم إلا قلةٌ من السادة والأعيان، وأغلبهم أطفالٌ حديثو السن".

النص الثالث والأخير الذي يُعرض في هذا الفصل، يأتي من "الرواية السابعة" لشيمالباين، وفيه توصف الطريقة التي تحرى بها كورتيس في كل مكان وحتى أخضع للتعذيب السادة المكسيكيين للحصول منهم على الذهب والكنوز الأخرى التي توارثوها من قديم الزمان.

من "رواية ١٥٢٨" الموروثة عن شخص مجهول من تلاتيلولكو ننشر كاملاً الجزء المتعلق بالفتح. الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب، يقدم لوحةً مثيرةً جداً للشفقة تصوِّر نزوح المغلوبين والإهانات التي لا تحصى التي تعرضوا لها، لما أُخضعت العاصمة المكسيكية.

نذير الهزيمة الأخير

وحدث أن ظهر لسان لهبٍ كبير. عندما حل الليل بدأت تمطر مطراً مثل قطر الندى. في هذا الوقت بدت تلك النار. ظهرت وتبدت كما لو أنها قادمةٌ من السماء. تشبه الدوامة، تتحرك دورانياً، وبشكلٍ لولبي. راحت تطلق شرراً، كما لو أن جمراً يتشظى. بعضه كبير وآخر شررٌ خفيف. كان كما

لو أن أنبوباً من المعدن وضع على النار، يحدث الكثير من القرقعة، يفرقع ويرمي شرراً. أحاط بالسور القريب من الماء وتوقف في كويوناكازكو. من هناك مضى لاحقاً إلى وسط البحيرة وهنالك انتهى. لم يُبد أحدٌ خوفاً، لم يتفوه أحدٌ بكلمة.

وفي اليوم التالي أيضاً لم يحصل أي شيء. لم يفعلوا أكثر من البقاء ممددين، مضطجعين في مواقعهم بقي أعداؤنا. والقائد كورتيس كان ينظر باستمرار إلى هنا واقفاً على السطح. كان سطح منزل إزتاوتزين، الذي هو قريبٌ من أماشاك. كان واقفاً تحت مظلة متعددة الألوان. الإسبان يحيطون به ويتحدث بعضهم إلى بعض.

القرار النهائي لكواوتيموك والمكسيكيين

من جانبهم (المكسيكيون) اجتمعوا في تولمايكان، وتداولوا فيما بينهم عما يجب فعله، ما الذي عليهم أن يقدموه كجزية، وبأي شكلٍ سنخضع لهم. كان المجتمعون: كواوتيموك وبقية الأمراء المكسيكيين...

بعد ذلك يجلبون كواوتيموك في قارب. اثنان، فقط اثنان كانا برفقته، يذهب معه الضابط تيبوتيتولك وخادمه ياتزاشيال وواحدٌ يجدف ويدعى ثينياوتل.

عندما أخذوا كواوتيموك، إذ ذاك الشعب كله يبكيه. يقولون: هاهو يمضي الأمير الشاب، كواوتيموك، إنه ذاهبٌ لتسليم نفسه للإسبان! إنه ماضٍ للاستسلام لـ "الآلهة"!.

سَجْنُ كواوتيموك

وعندما أخذوه إلى هناك، وأنزلوه من القارب، إذ ذاك أتى الإسبان لرؤيته. أخذوه من يده. ثم أصعدوه إلى أعلى السطح، وضعوه أمام القائد، زعيمهم الحربي. وبعد أن وضعوه أمام القائد، هذا يبدأ بالنظر إليه بإمعان، يداعب شعر كواوتيموك. بعدها أجلسوه بمواجهة القائد.

أطلقوا المدافع لكنها لم تصب أحداً (ربما هو احتفالٌ بالنصر). فقط يطلقون، والقذائف تمر فوق رؤوس المكسيكيين. لاحقاً أخذوا مدفعاً، وضعوه في سفينةٍ، أخذوه إلى دار كويوهويويتزين، وعندما وصلوا إلى هناك، أصعدوه إلى السطح.

الهروب الشامل

بعد ذلك مجدداً بدؤوا بقتل الناس. مات كثيرون هذه المرة. وحينئذٍ بدأ الهروب، بهذا ستنتهي الحرب. حينذاك كانوا يصرخون قائلين:

يكفينا!... هيا لنخرج!... و لنأكل أعشاباً!...

ولّما سمعوا هذا النداء بدأ الهروب الشامل.

بعضهم يمضي عبر الماء، آخرون يسلكون الطريق الكبير. وحتى هناك يتم قتل البعض. الإسبان مغتاظون لأن بعض الهنود لا زال يحمل سلاحه وترسه. الذين كانوا يقطنون في بيوت المدينة يمضون بشكلٍ مستقيم باتجاه أماشاك، مباشرةً إلى مفترق الطريق. هناك يتشتت الفقراء. بعضهم يتجهون إلى تيبياكاك، بعضهم يمضون باتجاه شوشوهولتيتلان، بعضهم يأخذون اتجاه نونوهوالكو. لكن إلى جهة شولوك أو مازاتزينتامالكو لا أحد يذهب.

أما من كان يعيش في قوارب والذين يقطنون على هياكل خشبيةٍ مغروسةٍ في الماء، وسكان تولمايكان ذهبوا حصراً عبر الماء. بعضهم يغمرهم حتى الصدر، آخرون بلغ الماء إلى أعناقهم. وحتى بعضهم غرقوا في المياه الأكثر عمقاً. الصغار يُحملون على الأكتاف. البكاء عام. لكن بعضهم يمضون فرحين، يتندرون ويقصون الطرائف، أثناء سيرهم معاً في الطرقات.

أما أصحاب القوارب، كل من لديهم قوارب فقد خرجوا ليلاً وحتى خلال النهار خرج بعضهم. لدى خروجهم يكاد يصدم بعضهم بعضاً.

الإسبان يستولون على كلِّ شيء

من جانبهم الإسبان ينتشرون على حواف الطرقات ويفتشون الناس. يبحثون عن الذهب. لا يهمهم البتة حجر اليشب الكريم ولا ريش الكيتزال ولا الفيروز.

النسوة كن يحملنه بين أثدائهن، في تنانيرهن. وأما الرجال ففي أفواههم أو في الرداء الوسطاني. وأيضاً ينتقون من بين النسوة النساء البيضاوات وذوات البشرة الحنطية، ذوات الجسم الحنطي. وبعض النساء ساعة السبي لطَّخن وجوههن بالوحل ولبسن أسمالاً بالية وخرقاً بدل التنانير والقمصان. كل لباسهن كان من الأسمال. أيضاً تم فصل بعض الشبان الشجعان والأقوياء من ذوي القلب الرجولي. وأيضاً شبانٌ صغار لكي يصبحوا خدماً لهم، أي سعاة يلبون طلباتهم. بعضهم طبعاً وسموهم بالنار قرب الفم. بعضهم على الخد، وآخرون على الشفاه.

لمّا أُنزل الترس، وبه أمسينا مهزومين، كان العام: ٣- بيت. اليوم: ١ - أفعى من التقويم السحري.

بعد أن سلم كواوتيموك نفسه أخذوه إلى أكاشينانكو بحلول الليل. لكن في اليوم التالي حين طلعت الشمس أتى مجدداً الكثير من الإسبان. أيضاً كانت نهاية الحرب بالنسبة لهم. يمضون بسلاح الحرب، ودروعٍ و خوذٍ معدنية لكن أياً منهم لا يحمل سيفاً، أياً منهم لا يحمل ترساً. جميعهم يغطون أنوفهم بمناديل بيضاء: يتقززون من الأموات، لأن أجسام هؤلاء صارت جيفاً منتنةً. وكلهم يسيرون على الأقدام. إنهم يمسكون من أرديتهم كواوتيموك وكواناكوتزين وتيتليبانكيتزالتزين. الثلاثة يسيرون صفاً...

كورتيس يشترط تسليم الذهب

عندما توقفت الحرب راح كورتيس يطالبهم بالذهب الذي تركوه مهجوراً في قناة التولتيك عندما خرجوا هاربين من مكسيكو.

إذ ذاك القائد يستدعي الملوك ويقول لهم:

- أين الذهب الذي كان مخزوناً في مكسيكو؟

عند ذلك يستخرجون من سفينةٍ كل الذهب. سبائك ذهبية، تعاويذ ذهبية، أساور ذهبية للذراعين، أربطةً ذهبية للأفخاذ، خوذاً ذهبية، أقراصاً ذهبية. كل ذلك وضعوه أمام القائد. والإسبان أتوا لإخراجه:

من ثم يقول القائد:

- أهذا هو كل الذهب الذي كان مخزوناً في مكسيكو؟ يجب أن تحضروا إلى هنا كل شيء. ائتوني بالقادة.

عندها يتكلم تلاكوتزين:

- اسمع من فضلك سيدنا الإله: كل ما كان يصل إلى قصرنا نحن كنا نغلق عليه خلف جدار. ألم يأخذه كله سادتنا (الإسبان)؟

إذ ذاك مالينتزين تنقل له قول القائد:

- نعم صحيح، كله أخذناه، كله تم جمعه في كتلةٍ واحدة وكله تم دمغه بختم، لكن جميعه أخذوه منا هناك في قناة التولتيك. كله أرغمونا على تركه يسقط في الماء. لذلك عليكم أن تحضروه كله.

عند ذلك يجيبه الزعيم تلاكوتزين:

- ليسمع من فضله الإله، القائد:

إن أهل تينوشتيتلان عادةً لا يقاتلون في سفن: هذا ليس من عادتهم. إن ذلك حصرياً شأن أهل تلاتيلولكو. هم بسفنٍ قاتلوا، دافعوا عن أنفسهم من هجماتكم، يا سادتنا. أليسوا هم ربما من أخذ الذهب كله، أي جماعة تلاتيلولكو؟

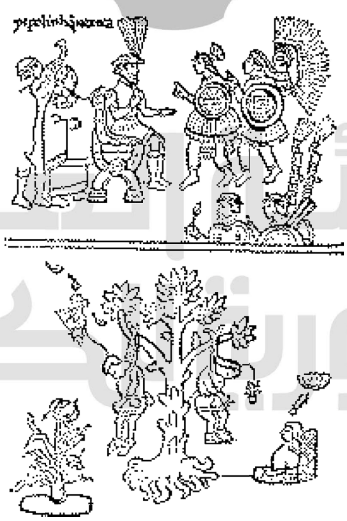

استسلام المكسيكيين

عندها تكلم كواوتيموك، قال للزعيم:

- ما الذي تقوله أيها الزعيم؟ إنه من الممكن جداً أن يكون قد استولى عليه التلاتيلولكيون... أليس لأجل هذا السبب قد اعتقل من اعتقل؟ ألم يُظهروا كل شيء؟ ألم يُجمع في تيكسوبان؟ والذي أخذه سادتنا أليس هو هذا الموجود هنا؟ وأشار كواوتيموك بإصبعه إلى ذلك الذهب.

عند ذلك مالينتزين تنقل مقالته للقائد، والذي يسأل:

- أهذا هو فقط؟

من ثم تحدث مسؤول الحماية (السيهوالكواتل):

- من الممكن أن أحداً ما من عامة الشعب قد استخرجه... لماذا لا يُستقصى؟ ألن يَستقصي القائد عن ذلك؟

مرة أخرى تنقل مالينتزين ما يقوله القائد:

- يجب أن تقدموا مئتي سبيكةٍ ذهبيةٍ بهذا الحجم...

وحدد القياس فاتحاً يداً مقابل أخرى.

مرةً أخرى أجاب المسؤول قائلاً:

- من الممكن أن امرأةً ما قد ربطته في تنورتها. ألن يتم التحري؟ ألن يُستوضح عن ذلك؟

عندئذ يتكلم هناك أهويليتوك الوزير. يقول:

ليستمع من فضله السيد، الرب، القائد: حتى في زمن موكتيثوما عندما يتم فتح منطقةٍ ما، كان يشترك في الحملات العسكرية المكسيكيون، والتلاتيلولكيون، والتيبانيك والأكولهوا. كل أهل أكولهواكان وجميع سكان منطقة الشينامباس.

كلنا كنا نذهب معاً، نفتح تلك البلدة، وحين يتم إخضاعها، نرجع دون حمل أي شيء. المقاتلون يعودون إلى أهليهم. وبعد ذلك يأتي سكان تلك البلدات المغلوبين، يجيؤون لتسليم جزيتهم، ممتلكاتهم الخاصة التي عليهم تقديمها هنا: اليشب والذهب وريش الكيتزال، وكل صنفٍ من الأحجار الكريمة... الفيروز والطيور ذات الريش الراقي الذي يشبه السيراميك، والطيور ذات العنق الأحمر، يأتون لتقديمها لموكتيثوما. كل شيءٍ كان يصب هنا، أي شيءٍ من أي مكان، بالمجمل يصل إلى تينوشتيتلان: كل الضريبة.

رواية ألفا إشتليلشوشيتل

في هذا اليوم الذي تم الاستيلاء فيه على المدينة ارتُكبت إحدى أكبر الفظاعات في الأرض بحق المكسيكيين المساكين. كان فظيعاً نحيب النساء والأطفال، إنه يقطع قلوب الرجال. أهل تلاكسكالا وأقوامٌ آخرون كانوا على عداوةٍ مع المكسيكيين، لذلك فقد انتقموا منهم بقسوةٍ عن الماضي، ونهبوا منهم كل ما في حوزتهم.

إشتليلشوشيتل (من تيتزكوكو وحليف كورتيس) وأتباعه، بالنهاية بما أن (المكسيكيين) من أبناء وطنهم وبما أن الكثيرين هم أنسباؤهم ويثيرون فيهم الشفقة عليهم، لذلك فإن إشتليلشوشيتل كان ينهر الجند لكي

يعاملوا النساء والأطفال بمنتهى القسوة، وكذلك كان كورتيس يأمر جنوده الإسبان.

بما أنه قد اقترب الليل فقد انسحبوا إلى ثكناتهم، وفي هذا الوقت اتفق كورتيس وإشتليلشوشيتل وبقية الضباط، على أنه في اليوم التالي سوف يكملون كسب ما تبقى.

في ذلك اليوم الذي صادف يوم القديس هيبوليتو الشهيد مضوا باتجاه الأعداء.

كورتيس سار عبر الشوارع، وأما إشتليلشوشيتل - مع ساندوفال الذي هو قائد السفن الشراعية-، فقد عبر الماء باتجاه بحيرةٍ صغيرةٍ، لأنه تم إخبار إشتليلشوشيتل كيف أن الملك (كواوتيموك) موجود هناك مع الكثير من الناس في القوارب. لذلك ذهبوا للوصول إليهم.

كان شيئاً مثيراً للعجب رؤية المكسيكيين والمحاربين مشوشين ويلفهم الحزن، وهم متسورون جدران السطوح وينظرون إلى إدبار أمرهم، أما الأطفال والشيوخ والنساء فقد كانوا يبكون بحرقةٍ. السادة والنبلاء في القوارب مع ملكهم كلهم حيارى.

سَجن كواوتيموك

لما أطلقت الإشارة فإن جنودنا هجموا جميعاً في وقتٍ واحدٍ باتجاه الأعداء، وحملوا بسرعةٍ بحيث إنه خلال ساعاتٍ قليلة غلبوهم، ولم يبق شيءٌ في صف الأعداء، أيضاً الزوارق والقوارب هجمت على زوارق وقوارب الأعداء، وبما أنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام جنودنا فقد هاموا على وجوههم هاربين وجنودنا يتبعونهم.

غارثيا دي أولغين وهو قائد زورق، أخبره مكسيكيٌّ أسيرٌ لديه بأن القارب الذي يتبعه موجودٌ فيه الملك، فأسرع خلفه إلى أن بلغه. الملك كواوتيموك لما رأى أن الأعداء صاروا بقربه، أمر الجدافين بأن يمضوا بالزورق باتجاههم من أجل القتال، ولما وجد نفسه بهذا الوضع أخذ ترسه وسيفه، وأراد النزال والتصدي لكن لما رأى تفوق الأعداء وهم يصوبون إليه سهامهم الحديدية وبنادقهم قرر الاستسلام.

كواوتيموك أمام كورتيس

غارثيا أولغين أخذه إلى عند كورتيس، الذي استقبله بحفاوةٍ كبيرة، في النهاية كملك، لكن كواوتيموك وضع يده على خنجر كورتيس، وقال له: آه أيها القائد! لقد فعلتُ أنا كل ما بوسعي للدفاع عن مملكتي، وتحريرها من قبضتكم، ولم يحالفني الحظ، انتزع حياتي، فذلك سيكون عدلاً حقاً، وبهذا تكونون قد قضيتم على الأمة المكسيكية، فها أنتم قد دمرتم مدينتي و قتلتم أتباعي... وأورد أسباباً أخرى مؤثرةً، بحيث رق قلب كل الموجودين هناك، لرؤية الأمير في هذا المصير.

كورتيس من جانبه عزاه ورجاه بأن يأمر أتباعه بالاستسلام، وهذا ما قام به، فصعد إلى برجٍ مرتفع، وناداهم بصوتٍ عالٍ بأن يستسلموا، لأنهم باتوا في قبضة الأعداء. المحاربون الذين يصل تعدادهم إلى ستين ألفاً وهم من بقي من الثلاثمئة ألفٍ الذين كانوا في جبهة مكسيكو، لما رأوا ملكهم تركوا السلاح، ورؤساء القوم وصلوا لمواساة ملكهم.

إشتليلشوشيتل الذي حرص جاهداً على أن يأخذ كواوتيموك من يده، ولكنه لم يقدر أن يقوم بذلك وحدَه بسبب وجوده على ظهر قاربٍ صغير وهو ليس سريعاً كالزورق، تمكن مع ذلك من اللحاق باثنين حيث يركب بعض الأمراء والسادة، مثل تيتليبانكيتزالتزين، وريث مملكة تلاكوبان، وتلاكويبانتزين ابن موكتيثوما ووريثه وآخرين كثر، وفي الزورق الآخر جلست الملكة بابانتزين أوشوموك، أرملة كويتلاهواك، مع سيداتٍ أخريات. إشتليلشوشيتل سار بهم وأخذ معه هؤلاء السادة إلى حيث كان كورتيس، أما الملكة وباقي السيدات فقد أمر بأخذهن إلى مدينة تيتزكوكو برفقة حراسةٍ كبيرة، وأن يبقوهن هناك.

مدة دوام الحصار

دام حصار مكسيكو حسب القصص والرسومات والروايات ولا سيَّما رواية السيد ألونسو أشاياكا ثمانين يوماً بالتمام والكمال. مات من جانب إشتليلشوشيتل ومملكة تيثكوكو أكثر من ثلاثين ألف رجل، وأكثر من مئتي ألف من جانب الإسبان، كما تم تبيانه. من طرف المكسيكيين مات أكثر من مئتين وأربعين ألفاً، وبينهم تقريباً كل طبقة النبلاء المكسيكيين، لأنه ما بقي إلا القلة القليلة من السادة والفرسان، و أكثرهم أطفالٌ وصغيرو السن.

هذا اليوم بعد أن تم نهب المدينة أخذ الإسبان لأنفسهم الذهب والفضة، وأما السادة من أتباعهم فقد أخذوا الأحجار الكريمة والأرياش الثمينة، أما الجنود فأخذوا الألبسة الفاخرة وبقية الأشياء، وقضوا بعد ذلك أربعة أيامٍ في دفن الموتى، ثم أقاموا احتفالاتٍ و أفراحاً.

رواية شيمالباين: ما تبع الاستيلاء على المدينة

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، بعد أن استراح السيف والترس، تم جمع السادة في أكاشينانكو.

الأول هو كواوتيموك، سيد تينوشتيتلان، الثاني تلاكوتزين الوزير، الثالث أوكيزتزين سيد إزكابوتزالكو ميكسيكابان، الرابع بانيتزين سيد إيكاتيبيك، الخامس اسمه موتليهويتزين، قهرمانٌ ملكي، هذا لم يكن أميراً، وإنما كان قائداً حربياً كبيراً.

هؤلاء الخمسة أمر بإنزالهم القائد إرنان كورتيس. قيدوهم وأخذوهم إلى كويواكان. فقط بانيتزين لم يتم تقييده. هناك في كويواكان تم حبسهم والاحتفاظ بهم كأسرى.

هناك حرقوا لهم أقدامهم، إضافة إلى الكهنة الأربعة الكبار، وتم استجوابهم عن الذهب الذي فُقد في قناة التولتيك (عندما هرب الإسبان عبر شارع تاكوبا أثناء مطاردة المكسيكيين لهم).

تم سؤالهم عن الذهب الذي تم جمعه في القصر على شكل ثماني سبائك والذي بقي بعهدة أوكويتيكاتل القهرمان الملكي. عندما مات هذا - بوباء الجدري- فقط بقي ابنه، ومن السبائك الثماني فقط ظهرت أربع. الابن هرب مباشرةً في ذلك الحين.

وإذ ذاك خرج من السجن من أُخذوا إلى كويواكان.

القائد إرنان كورتيس تحدث إلى أولئك المكسيكيين الخمسة الذين قاتلوا، السادة المكسيكيين كواوتيموك، تلاكوتزين الوزير، أوكيتزين،

بانيتزين وموتليهويتزين، إلى هؤلاء تكلم القائد كورتيس هناك في كويواكان، توجه اليهم عبر المترجمين خيرونيمو دي أغيلار و مالينتزين. قال لهم السيد القائد:

- أريد أن أعرف ماذا كانت أملاك مكسيكو، وما أملاك بقية المقاطعات؟.

وسادة مكسيكو أولئك في الحال بدؤوا يتداولون فيما بينهم. القائد تلاكوتزين أجاب بعدها:

- يا أميري، ليسمع الإله هذا القليل الذي سوف أقوله. أنا المكسيكي لم يكن لدي أراضٍ ومزارع، عندما أتيت إلى هنا إلى وسط هذه المدن هم نعم كانوا يملكون مزارع وأراضيَ. وبالسهام والتروس صرت سيداً على الآخرين، وحزت مزارع وأراضيَ.

مثلك أنت الذي أتيت إلى هنا بسهامٍ وتروسٍ للاستيلاء على جميع المدن. وكما أنت أتيت إلى هنا، بنفس الطريقة أيضاً أنا المكسيكي جئت واستوليت على الأرض بسهامٍ و تروس.

عندما سمع ذلك القائد كورتيس، قال بفخرٍ للجميع من حلفائه مخاطباً إياهم هكذا:

- تعالوا إلى هنا، إن المكسيكي بسهامٍ وتروسٍ استولى على أرضكم وعلى ممتلكاتكم، هنا حيث كنتم تخدمونه، لكن أنا الآن من جديدٍ بسهامٍ وتروس أترككم أحراراً، لم يعد أحدٌ مضطراً لخدمة المكسيكي. استعيدوا أرضكم ...

الفصل الرابع عشر

رؤية إجمالية "رواية الفتح" (١٥٢٨)
مؤلفوها رواةٌ مجهولون من تلاتيلولكو

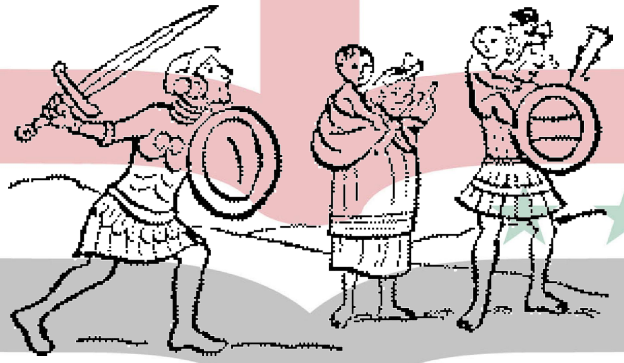

في الثلاثة عشر فصلاً السابقة قدّمنا سلسلةً من لوحاتِ الفتح، مأخوذة عن مصادر هنديةٍ متنوعة وهي مرتبة وفق التسلسل الزمني للأحداث. فيما يأتي نقدم كفصل ختاميّ روايةً هنديةً أخرى عن الفتح ذات أهمية خاصة تذكر جميع هذه الأحداث بطريقة أكثر إيجازاً.

"رواية الفتح" التي صيغت قرابة العام ١٥٢٨ من قبل مؤلفين مجهولين من تلاتيلولكو، والمحفوظة حالياً في المكتبة الوطنية في باريس، تشكل جزءاً من "حوليات تاريخية عن الأمة المكسيكية"، هي ربما النص الهندي الأقدم الذي يقدم لنا ما أسميناه ب "رؤية المغلوبين".

تبدأ الرواية من وصول الإسبان في العام ١٥١٩ إلى سواحل الخليج، حيث توجد اليوم مدينة فيراكروز القديمة، وتكتمل مع سقوط العاصمة المكسيكية والمصائب التي رافقت سقوطها في قبضة كورتيس. رغم كونها وثيقة قصيرة نسبياً، لكن يمكن القول أنها ربما هي ما تقدم لنا النظرة الإجمالية الهندية الصافية عن الفتح.

نقدمها فيما يأتي مصوغةً بالقشتالية من قبل الدكتور غاريباي، نُدخل فقط بعض العناوين الفرعية التي تساعد على تمييز المراحل المختلفة للفتح التي يتناولها النص الأزتيكي.

وصول كورتيس. رسل موكتيثوما

العام ١٣ - أرنب. تم رؤية إسبانٍ في الماء.

العام ١ - قصب. خرج الإسبان إلى قصر تلاياكاك آتياً معهم القائد. لمَّا خرج إلى قصر تلاياكاك، ذهب لاستقباله مبعوث موكتيثوما شوكويوتزين.

لهذا السبب ذهب ليقدم له هناك شموساً من معدنٍ نفيس، واحدةٌ من معدنٍ أصفر وأخرى من معدنٍ أبيض، ومرآة للتعليق وصينيةٌ من الذهب، وأهدوه كأساً كبيرةً من الذهب، ومراوح وزينةً من ريش الكيتزال وتروساً من اللؤلؤ.

أمام القائد تم تقديم قرابين بشرية. هو غضب لذلك لأنهم قدموا له دماً في "قصعة النسر". بسبب ذلك بطش بالذي قدم له الدم، ضربه بالسيف. لهذا تفرقوا هاربين، أي الذين أتوا لاستقباله.

كل ذلك تم جلبه للقائد من أجل تقديمه له بأمرٍ مباشرٍ من موكتيثوما. لهذا السبب ذهب للقاء القائد. هذه هي المهمة التي قام بها كويتلاكستلان.

كورتيس في تينوشتيتلان

وبعد ذلك وصل حتى تينوشتيتلان. وصل في شهر كيشولي، في يوم ٨ – ريح.

وعندما وصل إلى هنا إلى تينوشتيتلان، حينها قدمنا له دجاجاً، وبيضاً، وذرةً بيضاء، وعجةً بيضاء، وأعطيناه شراباً. سلمنا علفاً للوعول (الخيول) وحطباً.

من جهةٍ قدم له عطايا صاحب تينوشتيتلان، ومن جانبٍ آخر قدم له أعطياتٍ صاحب تلاتيلولكو.

إذ ذاك سافر القائد إلى الساحل. ترك السيد بيدرو دي ألفارادو (الملقب بـ) "الشمس."

مذبحة المعبد الكبير في عيد توشكاتل

في هذا الوقت أتوا ليسألوا موكتيثوما عن الطريقة التي سيحتفلون بها بإلههم. هو قال لهم:

ضعوا له كل الزينة الخاصة به. افعلوا ذلك.

في هذا الوقت أعطى "الشمس" (ألفارادو) أوامر: قُيِّد رئيس دار السهام (الترسانة)، وتم أسر موكتيثوما وزعيم تلاتيلولكو المسمى إتزكواتزين.

حينها شنقوا قائداً من أكواهواكان اسمه نيزاهوالكينتزين إلى جانب السور.

في هذا المكان الثاني مات ملك ناوتلا، المسمى كوهوالبوبوكاتزين. رموه بسهمٍ، وبعد أن أصابه السهم وكان لا يزال حياً بعدُ، قاموا بإحراقه.

لهذا السبب أقام التينوشك حراسةً في "باب النسر". فمن جهةٍ كان حي التينوشك، ومن جهةٍ أخرى حي التلاتيلولك.

أتى ليتحدث أولئك الذين زينوا هويتزيلوبوشتلي.

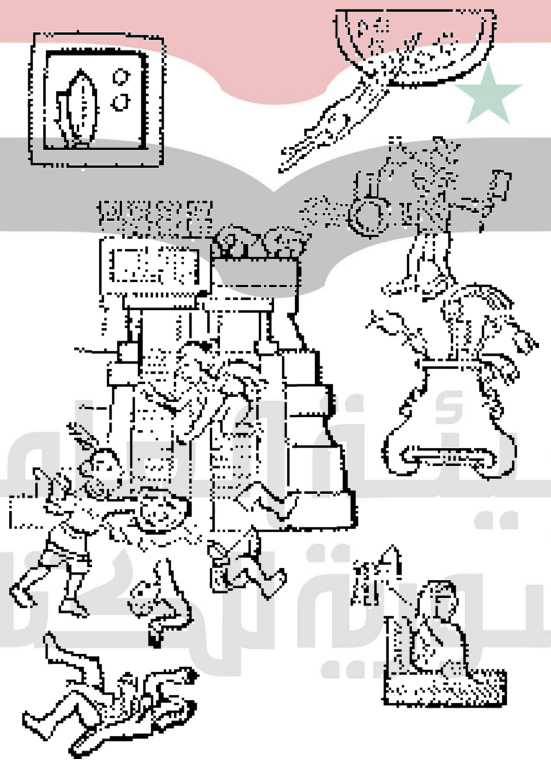

من كتاب "رؤية الفتح"

بعدها وضعوا ل "هويتزيلوبوشتلي" كل ما يُزيَّن به، ثيابه الورقية وكل الزينة الخاصة به. كل شيء وضعوه له.

ثم بدأ المكسيكيون بغناء أهازيجهم. هكذا صنعوا في اليوم الأول.

وأيضا تمكنوا من القيام بذلك في اليوم الثاني: بدؤوا بالغناء وحينئذٍ قُتل كثيرٌ، تم قتل العديد من التينوشك والتلاتيلولك.

الذين يغنون ويرقصون هم عُزَّلٌ بالكامل. كل ما يحملونه هو ثيابهم المزركشة، وأحجارهم الكريمة وأقراطهم وأطواقهم وذوائبهم من ريش مالك الحزين، تعاويذهم من رِجل الغزال. والذين يدقون الطبل، كبار السن يحملون آنيةً فيها تبغٌ مطحونٌ لاستنشاقه، ويحملون صناجاتهم.

بدايةً (الإسبان) قاموا بدفعهم بقوةٍ، ضربوهم بالأيدي، وصفعوهم على وجوههم، بعد ذلك حصلت المذبحة العامة لكل هؤلاء. الذين كانوا يغنون والجمهور، تم قتلهم جميعاً.

قاموا بدفعنا، نكّلوا بنا خلال ثلاث ساعات. المكان الذي قتلوا الناس فيه هو "الفناء المقدس".

بعد ذلك يدخل الإسبان إلى داخل حجرات المعبد لقتل الجميع: الذين ينقلون الماء، الذين يجلبون علفاً للخيول، الذين يطحنون، الذين يكنسون، والذين يراقبون.

لكن الملك موكتيثوما يرافقه زعيم تلاتيلولكو إيتزوكواتزين، والذين كانوا يقدمون الطعام للإسبان، يقولون لهم:

- يا سادتنا... يكفي! ما الذي تفعلونه؟ مساكينُ أهل البلد! هل يحملون تروساً؟ هل يحملون سيوفاً؟ إنهم عُزَّلٌ بالكامل!...

عندما وصل القائد إلى هنا، كان قد فتك بنا "الشمس" (ألفارادو). كان قد مضى عشرون يوماً منذ أن سافر القائد إلى الساحل عندما قَتَلَنا غدراً وغيلةً "الشمسُ."

لَمَّا وصل القائد إلى هنا لم يتم استقباله بالحرب، بل بسلامٍ وهدوءٍ دخل إلى هنا. في اليوم التالي هاجمناه بقوةٍ، وهكذا اندلعت الحرب.

الليلة الحزينة

مِنْ ثَمَّ خرجوا بعدها ليلاً. في عيد تيكويلهويتل خرجوا، وحينها ماتوا في قناة التولتيك. هناك هاجمناهم بشراسة. عندما خرجوا ليلاً، في البداية راحوا يتجمعون في مازاتزينتامالكو. هناك كان الانتظار والتجمع ليلحق بعضهم بعضاً عندما خرجوا ليلاً.

العام ٢- صوان. العام الذي مات فيه موكتيثوما، أيضاً في الوقت نفسه مات زعيم تلاتيلولكو "إتزكواتزين".

حين ذهب الإسبان ليعسكروا للاستقرار في أكويكو، طردوهم من هناك. ذهبوا للتموضع في تيوكالكوياكان. مضوا إلى زولتيبيك. من هناك رحلوا، ذهبوا للمكوث في تيبوزوتلان. من هناك مضوا، راحوا للتمركز في سيتلالتيبيك، ثم ذهبوا للاستقرار في تيمازكالابان. هناك خرج أهل البلد للقائهم: قدموا لهم دجاجاً، وبيضاً، وحبوبَ ذرة. هناك التقطوا أنفاسهم.

من ثم ذهبوا للدخول في تلاكسكالا.

وقتئذٍ انتشر الوباء: سعالٌ، بثورٌ حارةٌ محرقة.

عودة الإسبان

بعدما مضى بعض الوقت على الوباء، بدأ (الإسبان) المسير والزحف. خرجوا إلى تيبياكاك، هو أول مكان افتتحوه. ذهبوا من هناك: عند وقت عيد شربِ الخمر، خرجوا إلى تلابشوان، إنه عيد إزكالي.

بعد ثمانية عشر يوماً خرجوا، أتو ليتوضعوا في تيتزكوكو. مكثوا هناك أربعين يوماً.

بعدها أتوا، جاؤوا خلف سيتلالتيبيك. إلى تلاكوبان. هناك استقروا في القصر.

وأيضاً دخل إلى هنا أهل سبع بلداتٍ أخرى. لمدة سبعة أيامٍ لم ينشب قتال.

كانوا في تلاكوبان فقط. لكن بعدها من جديدٍ تراجعوا. ببساطةٍ ذهبوا جمعاً غفيراً ومن هناك خرجوا للاستقرار في تيتزكوكو.

بعد مضيِّ ثمانين يوماً خرجوا مرةً أخرى إلى هواشتيبيك. هناك قُتل أناسٌ من تلاتيلولكو. مرةً أخرى خرج الإسباني من هناك، أتى إلى تيتزكوكو أيضاً للاستقرار. أيضاً في تلاليزاكابا قتل أناسٌ من تلاتيلولكو. عندما ذهبوا للتموضع في تيتزكوكو إذ ذاك بدأ أهل تينوشتيتلان بقتل بعضهم بعضاً. في العام ٣- بيت قتلوا اثنين من أمرائهم. أيضاً قتلوا اثنين من أبناء موكتيثوما.

أكثر من ذلك: حصل هرجٌ ومرجٌ، وشرعوا يتشاجرون فيما بينهم وقتلَ بعضهم بعضاً. هذا هو سبب موت هؤلاء القادة: كانوا يسعون ويحاولون إقناع الشعب لجمع ذرةٍ بيضاء ودجاجٍ وبيض، لتقديم جزية لأولئك (الإسبان). الذين تم قتلهم هم كهنةٌ وقادةٌ وأشخاصٌ معتبرون. القادة الرئيسيون غضبوا بسبب موت أولئك الأعيان.

قال القتلة:

- هل نحن أتينا لارتكاب مجازر؟ مؤخراً، منذ ستين يوماً وقع قتلى في جانبنا... علينا جرى ما جرى في عيد توشكاتل!... (مذبحة المعبد الكبير).

حصار تينوشتيتلان

هاهم قد تأهبوا للحرب، سيشن علينا (الإسبان) هجوماً. لمدة عشرة أيامٍ سيقاتلوننا وعندها تظهر سفنهم. بعد عشرين يوماً وضعوا سفنهم في نونوهوالكو، في المكان المسمى مازاتزينتامالكو.عندما وصلت سفنهم إلى هنا، وصلوا من جهة إيزاكالكو. عندئذٍ خضع لهم قاطن إيزاكالكو. أيضاً من هناك توجهوا إلى هنا. بعدها مضوا لإرساء السفن في أكاشينانكو.

أيضاً بالطبع بنى أهل هويسوتينكو وتلاكسكالا بيوتهم من العيدان إلى جانب الطريق. أيضاً يوزع أهل تلاتيلولكو مراكبهم. هؤلاء موجودون في مراكبهم في الطريق إلى نونوهوالكو، في مكانٍ محددٍ هناك تُقيم سفنهم.

لكن في شوهويلتيتلان وفي تيبياكاك لا أحدَ لديه سفن. الوحيدون الذين يراقبون الطريق هم نحن أهل تلاتيلولكو عندما وصل أولئك في

قوارب. في اليوم التالي ذهبوا للرسوِّ عند مفرق مكسيكو. لكن ليومين حدث هناك قتالٌ في هويتزيلان. قتل بعضهم بعضاً أهل تينوشتيتلان. قالوا لبعضهم:

- أين هم رؤساؤنا؟ هل قاموا بالرمي ولو لمرةٍ واحدة؟ هل تصرفوا كالرجال؟

على عجلٍ أتوا لأخذ أربعةٍ: في المقدمة يسير الجلادون. قتلوا قائد جند تلاكاتيكو، وقائد جند هويتزناهواك، وكاهن أمانتلان، وكاهن تلاكوبان. بحيث إنه للمرة الثانية قد آذى أهل تينوشتيتلان أنفسهم بقتل بعضهم بعضاً.

أتى الإسبان ونصبوا مدفعين وسط طريق تيكامان باتجاهنا. عندما قاموا بالرمي أتت القذيفة لتسقط في باب النسر. عند ذلك بدأ أهل تينوشتيتلان بالتحرك جميعاً. عانقوا هويتزيلوبوشتلي، أدخلوه في تلاتيلولكو، أتوا لإيداعه في "دار الصبيان"، التي هي في أماشاك. وملكهم أتى للتمركز في أكاكولكو، ألا وهو كواوتيموك.

الناس تلجأ إلى تلاتيلولكو

وهذا كان كافياً، فعامة الناس هذه المرة تركوا مدينتهم تينوشتيتلان، والتجؤوا إلى تلاتيلولكو. أتوا للجوء إلى منازلنا. في الحال تموضعوا في كل مكانٍ من بيوتنا، حتى على أسطح المنازل.

يصرخ قادتهم وزعماؤهم قائلين لهم:

- يا سادتنا، أيها المكسيكيون، أيها التلاتيلولكيون...

لم يتبق لدينا سوى القليل القليل... لا نفعل أكثر من حراسة بيوتنا.

وذلك كيلا يستولوا على المخازن، على محصول أرضنا.

هنا موجودٌ قوتُكم، عصب الحياة ألا وهي الذرة.

الذي لأجلكم كان يحتفظ به ملككم: تروسٌ، شاراتٌ حربية، دروعٌ خفيفةٌ، نياشين من الريش، أقراطٌ ذهبيةٌ، حجارةٌ كريمةٌ. كل ذلك هو لكم، ملكيتكم.

لا ينالنّ الوهن من عزائمكم ولا تفقدوا معنوياتكم. إلى أين سوف نذهب؟

مكسيكيون نحن، تلاتيلولكيون نحن!

في الحال أخذ الضباط بسرعةٍ جميع الأشياء، عندما أتوا لتسليم شاراتهم، وأغراضهم الذهبية، وأشيائهم من ريش الكيتزال.

وهؤلاء هم الذين يصرخون عبر الطرقات وبين البيوت وفي المنازل: العديد من الزعماء والأعيان وأيضاً مسؤول المعابد. هؤلاء هم الذين ساروا يصرخون كما قد قيل، عندما أتوا لدخول تلاتيلولكو. وهنا الذين سمعوه: جميع سادة هذه الأنحاء سمعوا الخطاب الذي قاله أهل تينوشتيتلان.

وكل الوقت الذي ظللنا نقاتل فيه، لم يُر التينوشكي في أي مكان، في كل الطرقات هنا: في كل الأحياء وفي كل مكانٍ نحن حصرياً من قام بذلك، أي التلاتيلولكيون. الشيء نفسه في القنوات أيضاً حصرياً نحن من قاوم.

حسناً الآن، القادة التينوشكيون هنا (في ملجئهم في تلاتيلولكو) قصوا شعورهم، والأقل رتبةً أيضا قصوه، والرتب العسكرية الأدنى الذين يضعون عادةً خوذةً من الريش، لم يُشاهدوا مجدداً بهذه الهيئة، طوال الوقت الذي كنا نقاتل فيه. من جانبهم أهل تلاتيلولكو أحاطوا بقادة أولئك ونساؤهم جميعهن وبَّخنهم وأخجلنهم قائلاتٍ لهم:

- إنكم واقفون هنا ليس إلّا؟ ...ألا تشعرون بالعار؟ لن تتزين امرأةٌ لأجلكم بعد اليوم أبداً!...

ونساؤهم يسرن باكياتٍ ويتسولن في تلاتيلولكو. وعندما يرى كل ذلك أهل هذه المدينة فإنهم يستنكرونه، لكن لم يعد يُرى أحدٌ من التينوشكيين. من جانب التلاتيلولكيين هلك الجندي والضابط والقائد. ماتوا بفعل المدافع والبنادق.

رسالة السيد أكولهواكان

في هذا الوقت تأتي سفارة من ملك أكولهواكان، تيكوكولتزين. الذين أتوا للتباحث في تلاتيلولكو هم القادة الرئيسيون.

يقول مبعوثو ملك أكولهواكان، تيكوكولتزين:

- أرسلنا إلى هنا سيد أكولهواكان تيكوكولتزين. يقول ما يأتي:

"اسمعوا من فضلكم أيها المكسيكيون من حيِّ تلاتيلولكو:"

"إن قلوبكم تشتعل وتكتوي، وأجسامكم تتألم."

" بالطريقة نفسها فإنه يشتعل ويكتوي قلبي."

"ما القليل الذي أملكه؟ ماذا بقي من ممتلكاتي؟ لقد ثُقب ردائي ومن كل جانب يأخذونه: إنهم يسحبونه مني. لقد انتهى ساكن هذا البلد وقُضي عليه".

لذلك فإني أقول: "التينوشكي بإرادته فليختر ذلك: برغبته فليهلك: لن أفعل شيئاً أكثر لأجله، لن أثق بكلمته بعد الآن". "ماذا يقول؟ كيف ستقضون الأيام القليلة. هذا كل شيء: فليعوا كلامي."

يجيبهم عن خطابهم سادة تلاتيلولكو، يقولون لهم:

- إنك تشرفنا، أيها القائد، أخي: يا ترى أليسوا أهلنا قاطني أكولهواكان؟

إذن هاهو موجود: يسمعونه: منذ ستين يوماً ولديه النية بأن يتم فعل ما قد قيل. والآن قد قالها ببساطةٍ: يحيق بهم الدمار، لا يفعلون أكثر من الصراخ: فليبقَ بعضهم كقاطنين لكواوتيتلان، وآخرون من بلداتٍ أخرى يسمح لهم بالمرور.

لا أرى إلا هذا: القضية أنهم يصرخون بأنهم تلاتيلولكيون. كيف سأفعل ذلك؟

لقد رضي قلبك، لقد استمتع بفعل ذلك، نجح في ذلك، أتاه منقاداً!... آه إننا ننفذ أمرَ وإرادة سيدنا! منذ ستين يوماً ونحن نقاتل!...

أهل تلاتيلولكو مدعوون لعقد اتفاق

أتى ليهددهم من طرف الإسبان، أتى ليصرخ المسمى كاستانييدا، في الموضع المسمى ياوتينكو أتى صارخاً. يرافقه مجموعة من تلاكسكالا، إنهم يصيحون على المرابطين بجانب السور في الماء الأزرق.

أتى ليقول لهم:

- ليأتِ إلى هنا بعضٌ منكم!

وهم يقولون بعضهم لبعضٍ:

ما الذي يريد قوله؟ تعالوا لنستمع له.

من ثم يركبون زورقاً ومن على بعد مسافةٍ معينةٍ أصبحوا مستعدين ويقولون لذلك الشخص:

- ما الذي تريدون قوله؟

في الحال يقول أهل تلاكسكالا:

- أين موطنكم؟

يقولون:

- حسناً: أنتم المطلوبون. تعالوا إلى هنا ينادي الـ "إله" القائد:

عند ذلك خرجوا، يمضون معه إلى نونوهوالكو، إلى بيت الضباب حيث يتواجد القائد وماليتزين و"الشمس" (ألفارادو) وساندوفال. هناك اجتمع سادة الشعب، تحصل مداولةٌ وحوار، يقولون للقائد:

- أتى التلاتيلولكيون، لقد أتينا بهم.

قالت لهم ماليتزين:

"تعالوا إلى هنا: يقول القائد:"

"ما الذي يفكر به المكسيكيون؟ أهو صبيٌّ كواوتيموك؟

"أليس به شفقةٌ على الأطفال والنساء؟"

"أهكذا سيهلك كبار السن؟"

"هنا معي ملوك جميع المناطق".

هم (العديد من هؤلاء الملوك) قالوا:

- هل يسخر التينوشكي من الناس؟ أيضاً قلبه يعاني لأجل الشعب الذي ولد بين ظهرانيه. ليتركوا وحيداً التينوشكي وليحل به الهلاك وحدَه...

هل سيغتم قلب التلاتيلولكي لأنه بهذه الطريقة هلك المكسيكيون الذين كان يسخر منهم؟

عند ذلك يقول مبعوثو تلاتيلولكو للسادة:

- أليس الأمر مثل ما تقولون أيها السادة؟

يقولون هم (ملوك الهنود حلفاء كورتيس):

- نعم. ليسمع ذلك سيدنا "الإله": اتركوا وحيداً التينوشكي، وليهلك هو وحده... هل هي الكلمة التي تحملونها من زعمائنا؟

قال "الإله" (كورتيس):

- امضوا وقولوا لكواوتيموك: بأن يتفقوا، أن يتركوا وحيداً التينوشكي. أنا سأذهب إلى تيوكالهوياكان، وعندما يتفقون فليذهبوا إلى هناك ليبلغوني كلمتهم. وبالنسبة للسفن فسأنقلها إلى كويواكان.

بعدما سمعوه، قال له أهل تلاتيلولكو:

- أين سنمسك بأولئك (التينوشكيين) الذين تبحثون عنهم؟ لقد صرنا في النَّفَس الأخير، ارحمونا ولنلتقط أنفاسنا ولو لمرّة!...

وبهذه الطريقة نفسها ذهبوا للتكلُّم مع التينوشكيين. هناك تم الاجتماع بهم. من القوارب ما عاد أحدٌ يصرخ. ما كان ممكناً ترك التينوشكيين وحدَهم.

يُستأنف القتال

بينما الأمور كذلك أخيراً يستعدون للهجوم علينا. إنها المعركة. بعدها تموضعوا في كويبوبان وفي كوزكاكواكو، مستنفرين بسهامهم المعدنية. إنها المعركة مع كويوهويهويتزين وأربعةٍ آخرين. فيما يخص سفنهم، فإنها أتت لترسو في تيشوبان. ثلاثة أيامٍ دامت المعركة هناك. أتوا لإخراجنا من هنا. إثرها يصلون إلى الفناء المقدس: أربعة أيامٍ دام القتال هناك.

بعد ذلك يصلون حتى ياكاكولكو: وصل الإسبان إلى هنا عبر طريق تليلهواكان.

وهذا كان كل شيء. من سكان المدينة مات ألفان من تلاتيلولكو فقط. حينئذٍ صنعنا نحن جماعة تلاتيلولكو مضمومات من الجماجم. في ثلاثة مواضع عُلِّقت هذه المضمومات. في الفناء المقدس لـ "بيت السواد". وحيث توجد مضمومة جماجم سادتنا الإسبان.

في المكان الثاني الذي هو أكاكولكو أيضاً هناك مضمومةٌ من جماجم سادتنا وجمجمتي خيول.

في المكان الثالث الذي هو زاكاتلا، أمام معبد الإلهة (ثيهواكواتل) هناك حصرياً جماجم لأهل تلاتيلولكو.

بينما الأمور كذلك أتوا لإجلائنا. أتوا ليحطوا رحالهم في السوق. إذ ذاك حاقت الهزيمة بالتلاتيلولكي، النمر العظيم، النسر العظيم، المحارب العظيم. بهذا وضعت الحرب أوزارها. إذ ذاك كافحت وحاربت نساء تلاتيلولكو بإطلاق سهامهن. سددن ضرباتٍ للغزاة، كن متزيناتٍ بالشارات الحربية. وقمن بعقد تنانيرهن، رفعنها إلى فوق ركبهن للتمكن من مطاردة الأعداء. في ذلك الحين صنعوا تمثالاً قماشياً للقائد هناك في السوق، على معبدٍ صغير. حينئذٍ وضعوا المنجنيق هنا على المعبد. المعركة في السوق دامت خمسة أيام.

وصفٌ ملحميٌّ للمدينة المحاصرة

وكل هذا جرى علينا

نحن رأيناه، نحن دهشنا له

بهذا المصير المؤسف والحزين

وجدنا أنفسنا مغمومين.

في الطرقات ترقد سهامٌ مكسرة

والشعر البشري مبعثراً

البيوت صارت بلا سقوفٍ

وجدرانها محمرَّة

الديدان تتزاحم في الشوارع والساحات

وعلى الجدران أدمغةٌ ملطخة

المياه صارت حمراء كما لو أنها مصبوغة

وعندما نشربها فكأنما نشربُ ماءً أُجاجاً

كنا نضرب خلال ذلك جدران الطوب

وميراثنا شبكةٌ من الثقوب

بالتروس كانت حمايتها

لكن ولا حتى بتروسٍ يمكن احتمال وحشتها

لقد أكلنا عيداناً

ومضغنا نجيلاً سيِّئ الطعم

حجارة طوبٍ و سحالي

وفئراناً وتراباً وديداناً

لقد أكلنا اللحم

لتوّه وُضع على النار

وعندما كان ينضج

فإنهم فوراً يتلقّفونه

وفي النار نفسها يأكلونه

وضعوا لنا أسعاراً

الهيئة العامة السورية للكتاب

سعرٌ للشاب وسعرٌ للكاهن

للطفل وللفتاة

كفى! فمن تعسٍ بائسٍ كان السعر

فقط عشر حفناتٍ من الذرة

فقط عشر قطعٍ من العجة

سعرنا فقط عشرون قطعة عجةٍ من النجيل الحامض

أما الذهب والأحجار الكريمة والأردية الفاخرة

وريش طائر الكيتزال

وكل ما هو ثمينٌ

فلم يؤخذ بعين الاعتبار.

فقط تم إخراج الناس من السوق عندما تم نصب المنجنيق هناك. الآن حسناً، إلى حيث كواوتيموك يتم أخذ الأسرى حيث لا يبقون سالمين. الذين يأخذون الأسرى هم سادة تلاتيلولكو. من جهةٍ وأخرى يشقون بطونهم. كان يفتح بطونهم كواوتيموك شخصياً وبيده.

رسالة القائد شوشيتل

حصل في هذا الوقت أن أتى الإسبان جالبين معهم القائد شوشيتل الذي كان مسكنه في تينوشتيتلان. مات في الحرب. لمدة عشرين يوماً اصطحبوه برفقتهم. أتوا لتركه في سوق تلاتيلولكو. هناك اصطادته السهام.

عندما أتو ليتركوه حصل هذا: جلبوه ممسوكاً من الجهتين. يحملون معهم قوس سهامٍ حديدية، ومدفعاً نصبوه في المكان الذي يباع فيه البخور. هناك أطلقوا الصرخات.

بعدها يذهب أهل تلاتيلولكو، يذهبون لجلبه. يرشد الناس القائد هويتزناهواك.

عندما أخذوا شوشتيل، أتى القائد هويتزناهواك ليخبر (القائد كواوتيموك)، أتى ليقول له:

- إن شوشتيل يحمل رسالة.

وكواوتيموك تباحث مع توبانتيموك:

- أنت ستذهب للتحاور مع القائد (كورتيس).

خلال الوقت الذي ذهبوا فيه لترك شوشيتل استراح الترس ولم ينشب قتال، ولم يعد يؤسر أحد.

بعد ذلك يحملون شوشيتل، أتوا ليضعوه في معبد المرأة في إشوكوتزينكو.

بعد أن وضعوه هناك، إثر ذلك يقول: القادة لكواوتيموك:

- يا أميري: إنهم (الإسبان) قد جلبوا أحد القضاة وهو شوشيتل. يقول إنه يحمل رسالةً لك.

أجاب (كواوتيموك) قائلاً:

- وأنتم ماذا تقولون؟

في الحال صرخوا جميعاً قائلين:

- ليجلبوه إلى هنا... هذا هو حظنا وعقابنا. لقد ضربنا مندلاً في الورق وضربنا مندلاً في البخور. ليسمع فقط رسالته من ذهبَ لجلبه.

لذا في الحال يمضي القائد هويتزناهواك، ليرى ما هي الرسالة التي أتى لتركها شوشيتل.

شوشيتل قال: يبعث لكم قائلاً "الإله" القائد وماليتزين:

- اسمعوا من فضلكم، كواوتيموك، وكويوهويويتزين وتوبانتيموك:

"أليس عندكم شفقةٌ تجاه الفقراء، تجاه الأطفال، تجاه المسنين، تجاه المسنات؟ لقد انتهى كل شيءٍ هنا! هل ستجدي بعد الكلمات الجوفاء والخُطب الفارغة؟ كل شيءٍ انتهى!"

"سلِّموا نساءً ذات لونٍ حسنٍ، وذرةً بيضاء، ودجاجاً، وبيضاً، وعجةً بيضاء! لا زال ذلك ممكناً. بماذا تجيبون؟ إنه من الضروري أن يخضع بملْءِ إرادته التينوشكي، أو أن يهلك بمحض إرادته!..."

عندما انتهى القائد هويتزناهواك، من سماع الرسالة بعدها أعطى الكلمة لسادة تلاتيلولكو وأيضاً لملك التينوشكيين كواوتيموك. وبعد أن استمعوا للرسالة التي أتى لإيصالها لهم شوشيتل تبدأ المداولة. سادة تلاتيلولكو. يقولون:

- ما الذي تقولونه أنتم؟ ما قراركم؟

أجاب كويوهويويتزين:

- تكلم مع القائد هويتزاناهواك.

يستشار العرافون

يقول كواوتيموك (للعرافين):

- تعالوا من فضلكم: ماذا تنظرون، ماذا ترون في كتبكم؟

يقول له الكاهن، العارف بالأوراق، الذي يقص الأوراق.

- يا أميري: اسمع ما سنقوله بصدق:

فقط أربعة أيامٍ ونكمل ثمانين يوماً. ويا ترى هل هي إرادة هويتزيلوبوشتلي ألا يحدث شيءٌ لصالحنا؟ يا ترى هل يجب عليكم أن تتدبروا أمركم؟ لندع هذه الأربعة أيامٍ تمر لكي تكتمل الثمانون يوماً.

لكن هذا الرأي لم يؤبه له. ومن جديدٍ ينشب القتال. ذهب ليخوضها ويسعّر الحرب القائد هويتزناهواك. في نهاية المطاف كلنا بدأنا بالتحرك باتجاه أماشاك. إلى هناك امتدت المعركة. بعدها حصل الشتات، توضَّع الناس هكذا في كل ركنٍ، الماء امتلأ بالبشر، والطرقات ازدحمت بالناس.

المدينة مغلوبة

هذه هي الطريقة التي انتهى بها المكسيكي، والتلاتيلولكي. هجر مدينته. هنا في أماساك كنا جميعاً. لم يتبق معنا تروس، لم يعد لدينا أدوات حرب، ولم يبق عندنا شيءٌ نأكله، لم نعد نأكل شيئاً. وطوال الليل تمطر علينا.

سَجن كواوتيموك

الآن حسناً، عندما خرجوا من الماء خرج الأمراء ومعهم كواوتيموك. أخذوا كواوتيموك إلى حيث القائد والسيد بيدرو ألفارادو والسيدة مالينتزين.

وعندما تم أسر أولئك، بدأ الناس بالخروج من البلدة ليروا أين سيستقرون. خرجوا يلبسون الأسمال البالية، والنسوة تظهر أردافهن شبه عارية.

وفي كل موضعٍ يفتش المسيحيون. يفتحون تنانيرهن ويتحسسون بأيديهم كامل أجسادهن: على آذانهن، على أثدائهن، على شعورهن.

وبهذه الطريقة خرج الشعب: هام الناس على وجوههم في كل اتجاه، إلى البلدات المجاورة، دخلوا في كل زاوية، وفي عقر بيوت الغرباء.

في العام ٣- بيت (١٥٢١) فُتحت المدينة. وفي يوم ١ - أفعى حصل الشتات.

عندما تشتتنا فإن سادة تلاتيلولكو ذهبوا للاستقرار في كواوتيتلان.

من كان قائداً كبيراً، وصنديداً باسلاً يخرج وحيداً من هناك ولا يرتدي سوى أسمالٍ بالية. أيضاً النساء فقط يضعن على رؤوسهن خرقاً قديمةً، وقمصانهن صنعنها كيفما اتفق من قطع متعددة الألوان. لهذا السبب فإن السادة مغتمون، وعن هذا يتحدث بعضهم إلى بعضٍ قائلين: إننا نهلك للمرة الثانية!

رجلٌ فقيرٌ من عامة الشعب بينما كان يسير صعوداً قُتل غيلةً وغدراً في أوتونتلان. لأجل ذلك بدأ الناس بتداول الأمر والذين شعروا بالأسى لمصير ذلك الفقير. يقولون:

- تعالوا، تعالوا لنتوسل للقائد سيدنا.

أمر تسليم الذهب

في هذا الوقت يُستقصى عن الذهب، يُحقق مع الأشخاص، يتم سؤالهم عما إذا لديهم القليل من الذهب، إذا ما خبؤوه في تروسهم، أو في شاراتهم الحربية، إذا ما كانوا قد خبؤوه هناك، أيضاً يسألونهم حلقات آذانهم،

أوحلق شفاههم، أو حلق أنوفهم، أو ربما جوهرتهم المعلقة على الصدر، كل ما يمكن أن يكون معهم، يجب أن يتم تجميعه.

وهكذا حصل، فقد تم تجميع كل ما أمكن اكتشافه. بعدها أتى لتقديمه أحد رؤسائهم، من كل بلدةٍ زعيمها. هؤلاء أتوا لتسليم الذهب في كويواكان. عندما وصلوا إلى هناك قالوا:

- أيها القائد سيدنا، مليكنا: يبعث لك برجاء السادة أتباعك أعيان تلاتيلولكو. يقولون:

"اسمع من فضلك سيدنا:"

"إن رعيتكم في محنةٍ عظيمة، إذ يضايقهم سكان القرى التي لجؤوا إليها وهم محشورون في الأماكن الضيقة والزوايا."

"يسخر منهم سكان أكولهواكان والعساكر، ويقتلونهم غيلةً وغدراً."

"ولدينا هذا: هنا يقدمون ما يتوسلون به إليك: هذا ما كان في الآذان وفي تروس آلهة رعاياك."

أمامه يركنون ذلك، يضعونه في سلالٍ كبيرةٍ لكي يراه. وعندما رآه القائد وماليتزين غضبوا وقالوا:

- هل هذا هو المطلوب؟ المطلوب هو ما تُرك يسقط في قناة التولتيك. أين هو؟ نحن نحتاج إليه!

في الحال يجيبهم الذين أتوا في مهمة:

- لقد أعطاه كواوتيموك لثيهواكواتل ولهويزناهواكاتل. هم يعرفون أين هو: فليسألوهم.

عندما سمع ذلك، في النهاية أمر بأن يضعوا القيود في أيديهم وأن يسلسلوهم. أتت مالينتزين لتقول لهم:

- يقول القائد: فليمضوا، وليذهبوا لاستدعاء رؤسائهم. وشكر لهم ذلك. من المحتمل أن أهل البلد يعانون، لأن الآخرين منهم يسخرون.

فليأتوا، ليأتوا ويسكنوا بيوتهم في تلاتيلولكو، وفي جميع أراضيهم فليعد ويستقر التلاتيلولكيون. وقولوا لأعيان تلاتيلولكو: في تينوشتيتلان لن يستقر أحد، لأنها فتح "الآلهة"، إنها دارهم. هيا انطلقوا.

تعذيب كواوتيموك

لما تم ذلك، حين مضى سفراء سادة تلاتيلولكو، أُتي بأعيان تينوشتيتلان إلى حضرة الإسبان. يريدون منهم أن يتكلموا.

وقتذاك أمروا بإحراق قدمي القائد كواوتيموك.

في الصباح الباكر جلبوه، ربطوه إلى عمود خشبيّ في دار أهويتزوتزين.

هناك خرج السيف، والمدفع الذي يملكه سادتنا.

والذهب أخرجوه في كويتلاهواكتونكو، في دار اتزوبوتونكي. وعندما أخرجوه، من جديدٍ قاموا بأخذ أمرائنا مقيدين باتجاه كويواكان.

في هذا الوقت مات الكاهن المشرف على معبد هويتزيلوبوشتلي. لقد أخضعوه للتحقيق لمعرفة أين هي زينة الإله وزينة الكاهن الأكبر لسيدنا وزينة المشرف على تطييب المعابد بالبخور.

إذ ذاك تم إخبارهم أن الزينة الثمينة التي كانت في كواوشيليلكو وفي شالتوكان هي مخبأةٌ عند بعض الزعماء.

أخرجوها من هناك. ولمّا ظهرت الزينة، شنقوا اثنين وسط طريق مازاتلان.

الشعب يعود للاستقرار في تلاتيلولكو

في هذا الوقت بدأت عامة الشعب بالعودة إلى هنا، أتوا للاستقرار في تلاتيلولكو. حدث ذلك في العام ٤ - أرنب.

بعدها عاد تيميلوتزين، أتى ليستقر في كابولتيتلان.

والسيد هويويتزين أتى ليستقر في أتيبوك.

لكن كويووويويتزين وتوبانتيموتزين ماتوا في كواويتلان.

عندما أتينا لنستقر في تلاتيلولكو هنا فقط كنا نحن. لم يأت بعد ليقطن سادتنا المسيحيون. تركونا بسلام، كلهم بقوا في كويواكان.

هناك شنقوا ماكويلشوشيتل، ملك هويتزيلوبوشكو. ومن ثم ملك كولهواكان، بيزوتزين. الاثنان شنقوهما هناك.

وأما والي كواوتيتلان ووكيل "بيت السواد" فقد أنهشوهما للكلاب.

وأيضاً بعض الشخصيات المهمَّة من شوشيميلكو أكلتهم الكلاب.

وثلاثة حكماء من إيهكاتل، أصلهم من تيتزكوك أكلتهم الكلاب. هم فقط أتوا لتسليم أنفسهم. لم يأت بهم أحدٌ. فقط كانوا حاملين أوراقهم وعليها الرسومات (حوليات). كانوا أربعةً، أحدهم تمكن من الهرب: فقط ثلاثةٌ تم الإمساك بهم، هناك في كويواكان.

بالنسبة للإسبان فإنهم حين وصلوا إلى كويواكان، من هناك توزعوا على القرى المختلفة، كيفما اتفق.

بعدها فرزوا لهم هنوداً كعبيد في كل هذه القرى. حينئذ أُعْطو أشخاصاً كهبات، حينئذٍ مُنحوا عبيداً. في هذا الوقت أيضاً أطلقوا سراح سادة تينوشتيتلان. والمحررون ذهبوا إلى إزكابوتزالكو. هناك (في كويواكان) اتفق (الإسبان) على كيفية نقل الحرب إلى ميتزيتلان. من هناك عادوا إلى تولا.

بعدها شن القائد الحرب على أواشاكا. هم ذهبوا إلى أكولهواكان، ومن ثم إلى ميتزيتلان وميشواكان. بعد ذلك انتقلت الحرب إلى هوي مولان وإلى كواوتيمالا وإلى تيكوانتيبيك. وهنا بالذات انتهت.

الفصل الخامس عشر

قصائدُ حزينةٌ عن الفتح

ربما أفضل ما يمكن أن نختتم بها "رؤية المغلوبين" هو إيراد بعض القصائد الحزينة، التي هي مرثياتٌ حقيقية، مؤلفوها شعراء ناطقون بالناهوا من مرحلة ما بعد كورتيس.

القصيدة الأولى عن الفتح التي نوردها أولاً، مأخوذةٌ من "أناشيد مكسيكية"، وعلى الأرجح نُظمت نحو العام ١٥٢٣. فيها يُستذكر بحزنٍ الطريقة التي ضاع فيها إلى الأبد الشعب المكسيكي بهويته المعهودة إلى ذلك الحين. القصيدة التالية هي أكثر تعبيراً ودراماتيكية، وهي مأخوذةٌ عن "المخطوطة الهندية" لعام ١٥٢٨، تصف بدراماتيكيةٍ فائقةٍ حال المطوقين خلال حصار مكسيكو – تينوشتيتلان.

أخيراً القصيدة الثالثة التي تدخل في إطار القصائد الدرامية القابلة للتمثيل، تشمل الفترة الممتدة منذ وصول الفاتحين إلى تينوشتيتلان حتى الهزيمة النهائية للمكسيكيين. هنا فقط نورد اللحظات الأكثر دراماتيكيةً من الجزء الأخير. هذه القصائد هي أكثر تعبيريةً من شهاداتٍ أخرى تُظهر بوضوح الجرح البليغ الذي تركته الهزيمة في نفوس المغلوبين. هي حسب تعبير غاريباي، المؤشرات الأولى ل "عقدة الفتح".

الهيئة العامة السورية للكتاب

لقد ضاع الشعب المكسيكي

البكاءُ ينتشرُ والدموعُ تنهمرُ هناك في تلاتيلولكو

لقد مضى المكسيكيون عبرَ الماء

أشبه بالنساء، فالهروب شامل

إلى أين نحن ذاهبون آه يا أصدقائي؟

هل ما يجري حقيقة؟

إنّهم يهجرون مدينة مكسيكو:

الدخانُ يرتفع، والضبابُ ينتشر...

بالبكاء يحيي بعضهم بعضاً..

ابكوا يا أصدقائي

ليكن في علمكم أنه بهذه الوقائع

قد خسرنا الأمة المكسيكية

لقد فَسَدَ الماء والطعام

هذا ما فعله واهب الحياة[1] في تلاتيلولكو

---

(١) الغزاة الإسبان الذين ظُنَّ أنهم آلهة.

دون اعتبارٍ تمّ اعتقال موتليويتزين وتلاكوتزين

بالأهازيج يشجعُ بعضهم بعضاً في أكاشينانكو

آهٍ عندما وُضعوا على محك التجربة هناك في كويواكان

الأيام الأخيرة من حصار تينوشتيتلان

وكل هذا جرى علينا

نحن رأيناه

نحن دُهشنا له

بهذا المصير المؤسف والحزين

وجدنا أنفسنا مغمومين

في الطرقاتِ تقبعُ سهامٌ مكسرة

وشعرٌ بشريٌّ مبعثر

البيوتُ صارت بلا سقوفٍ

وجدرانها محمرّة

الديدانُ تتزاحم في الشوارع والساحات

وعلى الجدران أدمغةٌ ملطخة

المياهُ صارت حمراءَ كما لو أنّها مصبوغة

وعندما نشربها فكأنما نشرب ماءً أُجاجاً

كنّا نضرب خلال ذلك جدران الطوب

وميراثنا شبكةٌ من الثقوب

بالتروس كانت حمايتها

لكن ولا حتى بتروسٍ يمكن احتمال وحشتها

لقد أكلنا عيداناً

ومضغنا نجيلاً سيِّئَ الطعم

حجارة طوبٍ وسحالي

وفئراناً وتراباً وديداناً

لقد أكلنا اللحم لتوّه

وُضع على النار

وعندما كان ينضج

فإنهم فوراً يتلقفونه

وفي النار نفسها يأكلونه

لقد سعّرونا

سعرٌ للشابّ وللكاهن

للطفل وللفتاة

كفى! فمن بائسٍ تعسٍ كان السّعر

فقط عشر حفناتٍ من الذرة

فقط عشر قطعٍ من العجّة

سعرنا فقط عشرون قطعة عجةٍ من النجيل المالح

أما الذهب والأحجارُ الكريمة والأردية الفاخرة

وريش طائر الكيتزال

وكلّ ما هو ثمينٌ

فلم يؤخذ بعين الاعتبار

دمار أقوام التينوشك والتلاتيلولك

هيا تحمّس وقاتل يا تلاكالتيكاتل

فهاهم يخرجون من قواربهم: رجالُ قشتالة والخونة الشينامبيّون

إنّه محاصرٌ بالحرب التينوشكي

محاصرٌ بالحرب التلاتيلولكي

ها هو قادمٌ لسد الطريق رامي السهام كويوويتزين

ويخرج المحاربون عبر طريق تيبياك الكبير

إنّه محاصرٌ بالحرب التينوشكيّ

محاصرٌ بالحرب التلاتيلولكيّ

هاهي النار تسودّ

ويخرجُ الطلق الناري ملتهباً

وينتشر الضباب (الدخان)

لقد اعتقلوا كواوتيموك

وتنتشر إيماءات الأمراء المكسيكيين

إنه محاصرٌ بالحرب التينوشكيّ

محاصرٌ بالحرب التلاتيلولكيّ

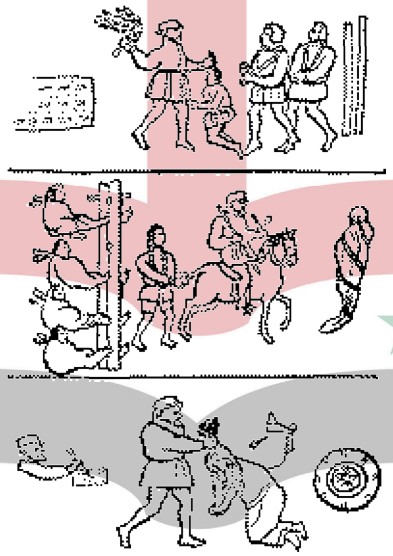

مصير المغلوبين.

سَجن كواوتيموك

إنّه محاصرٌ بالحرب التينوشكي

محاصرٌ بالحرب التلاتيلولكي

هاهي تسودّ النار وينفجر الطلق الناري ملتهباً

لقد قبضوا على كواوتيموك:

وتنتشر إيماءات الأمراء المكسيكيين

إنه محاصرٌ بالحرب التينوشكي

محاصرٌ بالحرب التلاتيلولكي

بعد مرور تسعة أيامٍ يؤخذون في صخبٍ إلى كويواكان:

كواوتيموك وكواناكوش وتيتليبانكيتزالتزين

أمسى الملوك أسرى

يعزيهم تلاكوتزين بقوله:

آه يا أبناء أخي تشجعوا، فبسلاسل من ذهبٍ أنتم مقيدون.

أمسى الملوك أسرى.

يجيب الملك كواوتيموك:

آه يا بن أخي أنتَ سجينٌ ومكبلٌ بالحديد.

من أنتِ يا من تجلسين إلى جانب الحاكم العام الإسباني؟

آه إنها السيدة إيزابيل ابنة أخي.

آه صحيحٌ أنّ الملوك أسرى

أجل، ستصبحين أمةً وتغدين من نصيب آخر

سيُصاغ لك العقد ويُنسج ريش طائر الكيتزال في كويواكان

من أنتِ يا مَنْ تجلسين إلى جانب الحاكم العام (الإسباني)؟

آه إنّها السيدة إيزابيل ابنة أخي

آه صحيحٌ أنّ الملوك أسرى.

فهرس

الصفحة

تعريف بالكتاب ٥

مقدمة ٧

الفصل الأول:

علامات منذرة بقدوم الإسبان ٢٩

الفصل الثاني:

الأخبار الأولى عن وصول الإسبان ٣٩

الفصل الثالث:

ذهاب الرسل و إيابهم ٤٩

الفصل الرابع:

الحالة النفسية للملك موكتيثوما ٦٣

الفصل الخامس:

الإسبان يبدؤون المسير. الوصول إلى تلاكسكالا و شولولا ... ٦٩

الصفحة

الفصل السادس:

إرسال دفعة جديدة من الهدايا وظهور تيزكاتليبوكا

في مشارف جبل بوبوكاتيبيتل المدخن ٨٣

الفصل السابع:

الأمير إشتليلشوشيتل يرحب بالإسبان ٩١

الفصل الثامن:

وصول الإسبان إلى مدينة مكسيكو - تينوشتيتلان ٩٩

الفصل التاسع:

مذبحة المعبد الكبير في عيد توشكاتل ١٠٩

الفصل العاشر:

عودة كورتيس: الليلة الحزينة ١٢٥

الفصل الحادي عشر:

بدء حصار مكسيكو - تينوشتيتلان ١٣٥

الفصل الثاني عشر:

غارات الإسبان داخل المدينة المحاصرة ١٤٧

الصفحة

الفصل الثالث عشر :

استسلام مكسيكو - تينوشتيتلان ١٦١

الفصل الرابع عشر :

رؤية إجمالية. "سردية وقائع الفتح" (١٥٢٨)

مصدرها شهود مجهولون من مدينة تلاتيلولكو ١٧٥

الفصل الخامس عشر :

قصائد حزينة عن الفتح..... ٢٠١

الفهرس ٢٠٩

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

ميغيل لِيون بورتيّا (١٩٢٦-٢٠١٩)

- فيلسوف ومؤرخ مكسيكي؛
- باحث فخري في الجامعة الوطنية المستقلة بالمكسيك؛
- عضو في الكلية الوطنية المكسيكية، ١٩٧١؛
- حاصل على وسام بيليساريو دومينغيز عام ١٩٩٥م؛

من أعماله:

- فلسفة الناواتل المدروسة، ١٩٥٦؛
- رؤية المغلوبين، ١٩٥٩.

الهيئة العامة السورية للكتاب

رياض شرف الدين

- مترجم سوري؛
- هذه المخطوطة أول أعماله المترجمة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب